

رسائل السلام
(١٢)

أوكار الاستكبار

حوارات مع كبار الطغاة في التاريخ

د. نور الدين أبو لحية

هذا الكتاب

تهدف هـذه الروايـة بأحـداثها وحواراتهـا مـع بعض كبار قادة الاستكبار والاستبداد في التـاريخ إلى هـدفين كبيرين، كلاهما له علاقة بالسلام وبتحقيقـه في الواقـع النفسي والاجتماعي والسياسي:

أولهما: بيان خطورة الاستكبار، ومنافاته لعـوالم السلام الجميلة، فالمستكبر عدو نفسه قبـل أن يكـون عدوا للمجتمع أو للرعية التي ولي عليها صغيرة كـانت أو كبـيرة.. ولـذلك حاولنـا في الروايـة أن نصـور بعض تلك الآلام التي يشعر بها المسـتكبر عنـدما يخلـع كفن جسـده، ويلبس الثـوب الـذي يمثـل حقيقتـه.. وقـد اسـتوحينا صـور تلـك الآلام من خلال مـا ورد في الروايـات من تجسـد الأعمـال وتحولهـا إلى حقيقتهـا الملكوتية الممتلئة بالألم.

ثانيهما: بيـان خطـورة السـكوت على الاسـتكبار وعدم مواجهته، واعتبرنا ذلك ـ كما دلت عليه النصوص المقدسـة ــ صـناعة للاسـتكبار وتقويـة لـه، كمـا قـال تعالى: ﴿ فَاسْـتَخَفَّ قَوْمَـهُ فَأَطَـاعُوهُ إِنَّهُمْ كَـانُوا قَوْمـاً فَاسِـقِينَ﴾ (الزخـرف:54).. ولـذلك حاولنـا أن نجسـد بعض مشـاهد الأوليـاء والصـالحين الـذين وقفـوا في وجوه طغاة زمانهم، وبينـا بعض أنـواع النعيم والسـلام الـــذي يعيشـــونه في مقابـــل الآلام الـــتي يعيشـــها المستكبرون.

وقد اخترنا لتحقيق هذين الهدفين سـبعة من كبـار أعلام الاسـتكبار في التـاريخ، كـل منهم يمثـل جانبـا أو

رسائل السلام

(12)

أوكار الاستكبار

حوارات مع كبار الطغاة في التاريخ

د. نور الدين أبو لحية

www.aboulahia.com

الطبعة الأولى

1438 - 2017

دار الأنوار للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

المقدمة

تهدف هذه الرواية بأحداثها وحواراتها مع بعض كبار قادة الاستكبار والاستبداد في التاريخ إلى هدفين كبيرين، كلاهما له علاقة بالسلام وبتحقيقه في الواقع النفسي والاجتماعي والسياسي:

أولهما: بيان خطورة الاستكبار، ومنافاته لعوالم السلام الجميلة، فالمستكبر عدو نفسه قبل أن يكون عدوا للمجتمع أو للرعية التي ولي عليها صغيرة كانت أو كبيرة.. ولذلك حاولنا في الرواية أن نصور بعض تلك الآلام التي يشعر بها المستكبر عندما يخلع كفن جسده، ويلبس الثوب الذي يمثل حقيقته.. وقد استوحينا صور تلك الآلام من خلال ما ورد في الروايات من تجسد الأعمال وتحولها إلى حقيقتها الملكوتية الممتلئة بالألم.

ثانيهما: بيان خطورة السكوت على الاستكبار وعدم مواجهته، واعتبرنا ذلك ــ كما دلت عليه النصوص المقدسة ـ صناعة للاستكبار وتقوية له، كما قال تعالى: ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾ (الزخرف:54).. ولذلك حاولنا أن نجسد بعض مشاهد الأولياء والصالحين الذين وقفوا في وجوه طغاة زمانهم، وبينا بعض أنواع النعيم والسلام الذي يعيشونه في مقابل الآلام التي يعيشها المستكبرون.

وقد اخترنا لتحقيق هذين الهدفين سبعة من كبار أعلام الاستكبار في التاريخ، كل منهم يمثل جانبا أو جوانب منه، وهم:

فرعون: ويمثل رمزا كبيرا من رموز الطغيان والاستبداد التي ذكرها القرآن الكريم، وعلمنا من خلالها أسرار الاستبداد، وكيفية الوقوف في وجهه [1]، ولم يذكره القرآن الكريم هكذا عبثا، ولا لمجرد التسلية، ولا لذكر بعض التفاصيل التاريخية التي تأنس لها النفس، وإنما ذكره ليبين الموقف منه ومن أمثاله من الطغاة، وليتحول كل مسلم إلى موسى وهارون ومؤمن آل فرعون وآسية بن مزاحم.

[1] وردت قصة فرعون في سبع وعشرين سورة من القرآن الكريم، فضلاً عن الإشارة إليها في ثنايا بعض السور الأخرى.

يزيد: ويمثل كل أولئك المستبدين الظلمة الذين تلقبوا زورا وبهتانا بلقب [الخليفة]، بينما هم في الحقيقة ليسوا سوى خلفاء للشيطان، وسدنة للدجال.. وقد اخترنا من بينهم [يزيد] لكونه من أوائل من سن سنة الاستبداد في هذه الأمة، ولأدواره القذرة في حرب دعاة القسط والعدالة.

الحجاج: ويمثل كل السدنة والوزراء والبطانة الذين كانوا أداة في أيدي المستبدين لفرض كبريائهم على الرعية.

أتاتورك: ويمثل كل أولئك الذين حاربوا شريعة الله، ليحيوا بدلها شريعة الطاغوت، ولينافسوا الله حاكميته على خلقه.

لينين: ويمثل كل أولئك المستبدين من أصحاب الأنظمة الشمولية الدكتاتورية الذين ملأوا الأرض جورا وظلما.

بوش: ويمثل كل أولئك المستبدين الذين يوهمون المستضعفين أنهم من دعاة الديمقراطية والحرية والأخوة الإنسانية، بينما هم في الواقع لا يختلفون عن أصحاب الأنظمة الشمولية الدكتاتورية.

الدجال: ويمثل خلاصة الاستبداد والاستكبار والفتنة.. فهو الذي تتملذ على جميع المستبدين، واستفاد من جميع خطط الشيطان لإغواء الإنسان.. وقد حاولنا أن نصور من خلال النصوص حركة الفتنة التي يقوم بها في الأرض، وكيفية مواجهة الصالحين له.

هؤلاء هم أبطال الرواية.. وهم ـ كما رأينا ـ يمثلون شخصيات مختلفة اتفقت البشرية جميعا ــ إلا من شذ منهم ــ على انحرافاتهم وطغيانهم وكبرهم.. وقد ذكرناهم ليمثلوا غيرهم، أو لنرى من خلالهم صورة الطاغوت، لنسقط عليها بعد ذلك كل من انطبقت صورته مع صورتهم، حتى لا نقع في التيه والضلال، فنمجد الطغيان في الوقت الذي ندعي فيه الإيمان.

وننبه القارئ إلى أننا انتهجنا منهج الرمز في كل ما نطرحه من صور ومشاهد.. والعاقل هو الذي يعبر من الرمز إلى ما بعده.. والغافل هو الذي يأسره الرمز عن العبور، فيقرأ الحروف،

ويغفل عن المعاني.

البداية

لست أدري هل كانت هذه الأحداث التي أريد أن أحكيهـا لكم اليوم أحداثا حقيقية حصلت لي وأنـا مسـتيقظ، وفي كامـل قـواي العقليـة، أم أنهـا حـدثت لي وأنـا في المنـام.. فقـد اختلطت علي حينها حياة اليقظة بحياة الأحلام..

لكن الذي أدريه أنني وبعد عودتي إلى هذا العالم الذي يعيش فيه جسدي، ويعيش فيه معي الناس، تحققت من كل شيء عشته حينها، فوجدته كما رأيتـه وسـمعته.. فلـذلك رحت أبثـه لكم مثلمـا عاينته بالضبط.

وبدايـــة حكـــايتي تنطلـــق مـــني، ومن قريـــتي الصـــغيرة المتواضعة .. فقد رأيت يومهـا ذلـك الضـخم الغليـظ الـذي اسـتبد بشؤون قريتنا، فـراح يحـيي فيهـا سـنة فرعـون وهامـان ونـيرون، وراح المستضعفون من حوله يتلاشون ويتساقطون كمـا يتسـاقط الذباب عندما تنزل عليه أمطار المبيدات.

كان ضخما.. وكـان لا يـرى نفسـه إلا ضـخما.. ولا يرضـى من أهل قريتي البسطاء أن يروه إلا كما يرى نفسـه.. والويـل لمن لم يره كما يرى نفسه.

وكان منظره هذا يملأ نفسـي بالصـراع.. ويملأ المستضـعفين من أمثالي بأنواع من الألم لا يمكن أن نعيش أي سلام معها.

لقـد كنـا نشـعر بسـيره إذا سـار.. فـالأرض تنـدك من حولـه، وبيوتنا المصـنوعة من طين الأرض الـتي خلقنـا منهـا تتشـقق كمـا تنشق أجسادنا.. فهي ترهبه كما نرهبه، وتعرف منه ما نعرف منه.

وكـان صـوته المجلجـل يخنـق أنفاسـنا، ويملأ أزيـزه عروقنـا ضيقا، فينحصر الدم في خلايانا، ويشع من وجوهنـا بريـق الصـفرة القاتلة.

ولم يكن وحـده في اسـتبداده وكبريائـه وطغيانـه.. بـل كـان يحيط به بطانـة من النـاس لا يقلـون عنـه اسـتبدادا وطغيانـا، وإن

كانوا يسيرون أمامه وخلفه وبين يديه كالعبيد والأقـزام، يصـفقون له، ويقبلون يديه، وينحنون برؤوسهم أمامه، بل يكـادون يسـجدون له..

في تلك النوبة من نوبات الصراع التي تنتـابني عنـدما أراه أو أسـمع صـوته، جـاءني معلم السـلام بهدوئـه وصـفائه وروحانيتـه، وطلب مني كعادته أن أقوم وأصحبه..

قلت: إلى أين.. فـأنت تـرى هـذا الضـخم قـد سـد علينـا نـور الشمس، وغل أيدينا وأرجلنا عن كل حركة؟

قال: ألا تريد أن ترى حقيقته؟

قلت: أتريدني أن أزداد ألما وصراعا وحزنا؟

قال: لن تنتصر على الصراع إلا بالمعرفة والمواجهة.. فعندما تراه على حقيقته ينكشف عنك كـل ألم، ويعـود لعينيـك إبصـارهما لترى الأشياء كما هي .. لا كما تتوهم.

قلت: وما فائده هذه المعرفة؟

قـال: أن تتخلص من الأغلال الـتي تحـول بينـك وبين الثـورة والمواجهة.

قلت: الثورة على من؟.. ومواجهة من؟

قــال: الثــورة على ضــعفك وخنوعــك وذلتــك.. فمــا كــان للمســتكبرين والطغـاة والمسـتبدين أن يمارسـوا كبريـاءهم لـولا ضعفك وخنوعك وذلتك.. ألم تسمع قوله تعالى: ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ [الزخرف: 54]؟

قلت: بلى، ولكن ذلك فرعون.. وأولئك قومه.

قال: وهل ترى اللـه تعـالى ذكـر فرعـون ليسـليك، أم ذكـره ليربيك..

قلت: بل ذكره ليربيني، وقد قـال تعـالى بعـد الآيـة السـابقة: ﴿فَلَمَّا آسَـفُونَا انْتَقَمْنَـا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـاهُمْ أَجْمَعِينَ (55) فَجَعَلْنَـاهُمْ

سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ ﴾ [الزخرف: 55، 56]

قال: فقد أجابك ربك..

قلت: ما تعني؟

قـال: لقـد اعتـبر اللـه تعـالى المسـتكبرين والمستضـعفين الخانعين شيئا واحدا.. فقد شملهم العذاب جميعـا.. فعنـدما وقعت ميــاه البحـــر على جيش فرعـــون لم تفـــرق بينـــه وبين جنـــوده المستضعفين.

قلت: أجل .. لقد أخبر الله تعالى عن ذلك كثـيرا في القـرآن الكـــريم.. ومن تلـــك المشـــاهد الـــتي ذكرهـــا عن الصـــراع بين المستكبرين والمستضعفين في الآخـرة مـا ورد في قولـه تعـالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَـاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُـولُ الضُّـعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْـتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًـا فَهَـلْ أَنْتُمْ مُغْنُـونَ عَنَّا نَصِـيبًا مِنَ النَّارِ (47) قَـالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [غافر: 47، 48]

قال: فها أنت ترى كيف نـال المستضـعفون هم الضـعف في الدنيا، وهم العذاب في الآخرة.

قلت: أجل.. ولكن لم كان الأمـر كـذلك.. لم لم يـرحم هـؤلاء المستضعفون؟

قال: لأنهم كانوا سبب كبرياء المستكبرين.. فولالهم ما ظهــر المستكبرون.

***

سرت مع صاحبي في متاهات عجيبة إلى أن وصلنا إلى أرض قاحلة جدباء، لم أر في حياتي أجدب منهـا، وكـأن أرضـها لم تـذق طعم الماء مذ وجدت الأرض، أو كأننا في كوكوب آخر غير الأرض.

سألت صاحبي عن سر هذه الأرض، وما حـل بهـا من جـدب، فقال: هذه أرض الاسـتكبار.. إنهـا مجدبـة كنفوسـهم الـتي امتلأت كبرا.

قلت: لو لم يكن من عقابهم إلا هـذه الأرض وموتهـا لكفـاهم ذلك.

قــال: أنت لم تــر شــيئا بعــد.. إن أكــبر أمنيــة لهم هي أن يستوطنوا مثل هذه الأرض، ويعيشوا فيها.

قلت: ألا زلنا نرى أكثر من هذا القحط الذي يذكرنا بالموت؟

قـال: لا زلت تـرى الكثـير ممـا لا يحتملـه جسـدك الضـعيف، فلذلك سترتدي هذه الثياب الخاصة لتنزل إلى أوكار الاستكبار.

لبســت مــا أعطــاني من الثيــاب، ثم نــزلت معــه إلى مهــاو عميقة، خرجت بنـا إلى كهـوف مظلمـة، ثم مغـارات تمتلئ حيـات وعقارب..

صحت: أفي جهنم نحن؟.. ما هذه الحيات والعقارب؟

قـال: هـذه هي الحيـات والعقـارب الـتي كـان المسـتكبرون منشـغلين بتسـمينها في حيـاتهم مـع المستضـعفين.. لقـد لاقوهـا أسمن ما تكون، وأقوى ما تكون.

قلت: فلم تعذبونهم بها؟.. لا أزال أسمع أن أهل السلام أهــل رحمة.

قال: نحن لا نعذبهم.. ولكنهم يتعذبون بما زرعوا.. لقـد نزلـوا إلى الأرض، وكلفـوا أن يملأوهـا زيتونـا وبرتقـالا، فراحـوا يملأونهـا قيودا وأغلالا.. وكلفوا أن يعلموا الطيـور أجمـل التسـابيح، فراحـوا يبحثون عن الأفاعي والحيات، ليملأوها بأخطر السموم.. فلذلك لم يجدوا في هذه الأوكار إلا ما زرعوا في تلك الأرض.

قلت: في أي أرض نحن.. فإن القيامة لم تقم؟

قال: نحن في أرض التكليف، وهـؤلاء الـذين سـتراهم جعلهم الله عبرة للمكلفين، وما كان الله الـرحمن الـرحيم ليـؤخر عقوبـة من استذلوا عبـاده، وهـدموا بنيـانهم، وخرقـوا جمـال الجنـة الـتي جعلها لهم.

قلت: المستكبرون كثير.. فمن سنرى فيها؟

قال: سبعة..

قلت: أهم سبعة أشخاص؟

قال: هم سبعة أشخاص من حيث ذواتهم.. ولكنهم سبعون ألفا من حيث قوالبهم..

قلت: ماذا تقصد؟.. أهم سبعة، أم سبعون ألفا؟

قال: كل فرد منهم يمثل أمة من أمم المستكبرين، وفكرا من أفكار الاستكبار.

قلت: فما جدوى الحديث معهم.. ألتسليتهم؟

قال: لا.. بل لنتعرف على أسباب الاستكبار وأساليبه.

قلت: لم؟

قال: كيف يقاوم الأطباء عندكم الأمراض؟

قلت: بعد التعرف عليها.. والبحث عن مناهجها في نخر الجسد والتلاعب به.

قال: فكذلك أهل حصون المستضعفين.. لا يتوجهون لعدوهم من المستكبرين إلا بعد التعرف على أسبابه وأساليبه.. فمن الخطأ والخطر أن تقاوم ما لا تعرف.

***

دخلنا المغارة التي امتلأت آلاما، كانت ضيقة شديدة الضيق، ولكنا ـ لسر الحلة التي نرتديها ـ مررنا فيها كما يمر النسيم العذب، أو كما تمر الأطياف التي لا تحول بينها الحوائل.

كان أول ما بادرنا صوت يمتلئ ألما..

شد سمعي صوت قبيح يفوح بكل ألوان الألم، فرفعت بصري لأرى من يخـاطبني، فـرأيت منظـرا لا يمكنـني ــ مهمـا حـاولت ـ وصفه.

قلت: من أنت؟.. فإن لك من القبح ما يصرف الأبصار عنك.

قال: هذا جزاء موافق لجـرائمي.. فقـد كنت ظالمـا مسـتبدا، ولم أكتف بذلك، بل رحت أزاحم الله ألوهيته.

قلت: من أنت أولا؟..

قـال: أنـا فرعـون.. عـدو السـلام الأول.. أنـا المسـتبد الـذي حارب الله، واسـتهزأ بـه، وأراد أن يطلـع عليـه.. أنـا الـذي صـحت بملء في : أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (النازعـات:24)

وليتـني اكتفيت بـذلك، بـل رحت أسـوم عبـاد اللـه الخسـف، وأذيقهم الهـوان.. لقـد حـاربت رسـل اللـه الممثلين في موسـى وأخيه بكل صنوف المحاربة.

ولم أكتف بذلك، بل رحت أحارب أقرب النـاس إلي، زوجـتي التي أرسلها الله وزيرا صـالحا يعينـني، لكنـني أبيت إلا أن أسـيمها الخسف الذي لا أزال أتجرع آلامه.

قلت: وليتك اكتفيت بـذلك.. بـل رحت تحـارب علمـاء قومـك الذين عرفوا الحق فاهتدوا به.

قال: أجل.. أذكر ذلك، وأتـألم لـه، لقـد قلت حينهـا بكبريـائي الــذي لم يكن يعــرف الحــدود: آمَنْتُمْ لَـهُ قَبْـلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلَأُصَـلِّبَنَّكُمْ فِي جُـذُوعِ النَّخْـلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَـا أَشَـدُّ عَـذَاباً وَأَبْقَى (طـه: 71)

لقد كنت أتصور أنه لا ينبغي لأحد أن يفكر أي تفكـير قبـل أن آذن لــه، ولم أكن آذن للتفكـير أن يخــرج عن إطــار التفكـير في

مصالحي التي لا تنتهي.

قلت: وأنت قـد حـاربت اللاجـئين إلى أرضـك، والأقليـة المستضعفة في بلدك.

قال: أجل.. ذلك صحيح، وقد سجله ربي في القـرآن الكـريم، لقد قال عند ذكـره لبعض جـرائمي، وهـو يمن على المستضـعفين الذين أخطأوا في التعامـل مـع فضـل اللـه : وَإِذْ نَجَّيْنَـاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَـوْنَ يَسُـومُونَكُمْ سُـوءَ الْعَـذَابِ يُـذَبِّحُونَ أَبْنَـاءَكُمْ وَيَسْـتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (البقرة:49)

قلت: وأنت قد حـاربت رعيتـك بعـد ذلـك كلـه، فاسـتعبدتهم، وحلت بينهم وبين عبادة الله.

قال: أجل.. لا أزال أذكر الخطبة الـتي قلت فيهـا : يَـا قَـوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِـرُونَ أَمْ أَنَـا خَيْـرٌ مِنْ هَـذَا الَّذِي هُـوَ مَهِينٌ وَلا يَكَـادُ يُبِينُ فَلَـوْلا أُلْقِيَ عَلَيْـهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَـهُ الْمَلائِكَـةُ مُقْتَـرِنِينَ (الزخـرف:51 ـ 53)

قلت: لا أزال متعجبا من طاعـة قومـك لـك.. أكـانوا يملكـون عقول عصافير.. ألم يكن ضعفك واضحا لديهم؟

قال: دعني منهم.. فلولاهم ما ادعيت مـا ادعيت.. إن ضـعف الرعية وذلتها وهوانها هي سبب مـا يـنزل بهـا المسـتبد من ألـوان الهوان.. إنهم شركاء في كل الجرائم التي وقعت فيها.. ألم تسمع قوله تعالى: فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِـقِينَ (الزخرف:54)

سمعت أصواتا كثيرة قبيحة ــ كقبح صـوت فرعـون ــ ترتفـع، وكأنها تحتج..صحت: ما هذا الصياح الذي يصخ الآذان؟

قال الصوت: ألا ترى ما يقول هذا المستبد الذي لم يكتف بما أذاقنا من ألوان الهوان في الدنيا، حتى راح يحملنا أوزاره..

قال فرعون: ولكنكم كنتم تزينون لي مـا أنـا فيـه.. لقـد كـان

شعراؤكم هم الذين أوحوا إلى نفسي فكرة ادعاء الألوهية.. وقد نشرت في أغانيكم التي ترسلونها في مدحي من النشوة ما جعلني أصيح في وجه مستشاري : يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (القصص: 38)

قلت: من هؤلاء الذين يخاصمونك وتخاصمهم؟

قال: ألا تقرأ كتاب ربك؟

قلت: بلى.. أقرؤه، ولكني لم أسألك عنه.

قال: فهؤلاء هم الذين ورد ذكرهم في قوله تعالى: وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَاداً وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (سبأ:31 ـ 33)

قلت: بلى.. لقد ورد مثل هذا في مواضع من القرآن الكريم.

قال: فأخبر قومك من المستضعفين أن ضعفهم لن ينفعهم، ولن يكون لهم حجة عند الله تعالى، فموازين الله من العدالة بحيث لن يضيع فيه إجرام مجرم، ولا عدل عادل.

قلت: أراك تتقن الوعظ والنصيحة.

قال: وما لي لا أكون كذلك، وقد عاينت الحقائق التي كنت محجوبا عنها بكبريائي وغطرستي.

قلت: لقد ذكرك الله في القرآن الكريم، وملأ قلوب المستضعفين لك كراهية.

قال: أنتم تقرأون كلام ربكم، ولا تسمعونه، إن القرآن الكريم

لم يقصد شخصي، فأنا أقل شأنا من أن يتكلم الله عني في وحيه المنزل لهداية عباده.. ولكن الله تعالى ذكرني ليبين سنة الاستبداد وكيفية مواجهتها..

قلت: أهناك غيرك ممن هم مثلك؟

قال: بل هناك الكثير ممن هم أعظم إجراما مني.. وأنا لست سوى مجرد قزم صغير بينهم.

قلت: متى حصل هذا؟

قال: في كل فترات التاريخ.

قلت: وفي عصرنا؟

قال: كما في كل العصور.. إن فرعون الذي أمامك لا يمثل شخصا قد غمرته مياه البحار ذات يوم، وانتهى أمره، وانتهت قصته، بل فرعون موجود في كل مكان، وفي كل محل تتخذ فيه القرارات السهلة أو القرارات الصعبة.

هو في مجلس الأمن يجثم على صدر كل من يصوت للحروب، ويدعو للحروب بأسمائها المختلفة.

وهو في مجالس الحكم يقمع المظاهرات التي تطالب بالحقوق البسيطة والمعقدة.

وهو في صدر المعلم والأستاذ الذي يتكبر على تلاميذه وطلبته، ويبث فيهم روح الكبرياء.

وهو في صدر ر ب الأسرة الذي يأمر وينهى، وكأنه إله من دون الله.

كلهم يقولون :﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ (النازعات: 24) من حيث يشعرون، ومن حيث لا يشعرون.

قلت: ألهذا يقص القرآن الكريم علينا قصتك، ويكررها كل حين، بل يجمع بين رسالتي محمد ﷺ وموسى عليه السلام، ويخبر أن محمدا ﷺ مرسل إلينا كما أرسل موسى إلى فرعون، كما قال

تعـالى: إِنَّا أَرْسَـلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُـولاً شَـاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَـا أَرْسَـلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً (المزمل: 15)

قال: أجل.. والحرب الـتي ينشـئها فرعـون المختـبئ في كـل هذه النفوس تبدأ من الحروب الكبرى التي تقتل الآلاف والملايين، وتنتهي بالحروب النفسية وأشكال الصراع التي تدمر الحيـاة، أو لا تبقي من الحياة غير الأطلال.

قلت: فما النهاية التي ينتهي إليها كل هؤلاء الفراعنة؟

قـال: مـا تـراه الآن.. هـذه الأغلال والقيـود.. وهـذه الحيـات والعقارب.. وهذا العذاب النفسي المرير الذي نعانيـه كلمـا تـذكرنا الفرص العظيمة التي وهبناها، والغفلة العظيمة التي طوقتنا..

قلت: أخبرني بصدق.. ألم تبهرك كل تلك الحجج التي جاء بها موسى عليه السلام.. والتي آمن السحرة بمجرد رؤيتهم لها؟

قال: بلى .. لقد بهرتني .. وعرفت من خلالها صدق موسى .. وأن هناك إلها حقيقيا.. وأنني لم أكن سوى إلها مزيفا..

قلت: فلم لم تسلم له كما سلم السحرة؟

قـــال: ولم لم يســـجد إبليس لآدم؟ ألم يكن يعلم أن الآمـــر بالسجود هو الله؟

قلت: بلى.. ولكن كبرياءه وحسده منعاه من ذلك.

قال: وكذلك كبريائي وحسـدي منعـاني من ذلـك .. لقـد كنت أرى نفسي ضخما بحيث لا يمكن لأحد أن يتجاهل مكاني ومكـانتي حـتى اللـه نفسـه .. ولـذلك رحت أقـول لقـومي المغـرمين بي: يَاقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْـكُ مِصْـرَ وَهَـذِهِ الْأَنْهَـارُ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51) أَمْ أَنَا خَيْـرٌ مِنْ هَـذَا الَّذِي هُـوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَـادُ يُبِينُ (52) فَلَـوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْـهِ أَسْـوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَـاءَ مَعَـهُ الْمَلَائِكَـةُ مُقْتَرِنِينَ (53) [الزخرف: 51 - 54]

قلت: أجل .. لقد ذكر الله تعـالى كبريـاءك وكبريـاء الملأ من حولك، فقال: ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْـدِهِم مُّوسَـى وَهَـارُونَ إِلَى فِرْعَـوْنَ

وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمـاً مُّجْـرِمِينَ. فَلَمَّا جَـاءَهُمُ الحَـقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ. قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ [يونس:75-77]

قال: صدق ربي .. لقد وصـفت الآيـات الـتي تلوتهـا حقيقـتي وحقيقه ما كنت أفعله من حيل لأصرف قومي عن اتباع نبي اللــه، والخضـوع لآيـات اللـه.. لقـد كنت أصـورها لهم كمـا صـورها كـل المشاغبين على الرسل بأنها من السحر.

قلت: أجــل .. لقــد أخــبر اللــه تعــالى أن ســنة الملأ من المستبدين والمستكبرين رمي الأنبياء بالسـحر.. فقـد قـال تعـالى يصف موقف الملأ من قريش من الآيات الـتي جـاءهم بهـا رسـول اللــه ﷺ: أَكَـانَ لِلنَّاسِ عَجَبًـا أَنْ أَوْحَيْنَـا إِلَى رَجُـلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْـذِرِ النَّاسَ وَبَشِّــرِ الَّذِينَ آمَنُــوا أَنَّ لَهُمْ قَــدَمَ صِــدْقٍ عِنْــدَ رَبِّهِمْ قَــالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ [يونس: 2]

وقال معمما هذه السـنة على جميـع أنـواع الملأ: كَـذَلِكَ مَـا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُــولٍ إِلَّا قَــالُوا سَــاحِرٌ أَوْ مَجْنُــونٌ [الذاريات: 52]

قال: ولكن الله مع ذلـك.. ومـع كبريـائي وتعنـتي .. أعطـاني الفرصة تلو الفرصة، لعلي أعود إلى وعيي .. وكانت أعظم فرصـة فوتها ولم أحسن التصـرف معهـا موقـف السـحرة.. أولئـك الـذين كانوا مقربين لـدي .. وكنت أثـق فيهم.. بـل كنت أجعلهم واسـطة بيني وبين قومي.. وعلى يديهم كنت أنفذ الكثير من مخططاتي.

لقـد آمن هـؤلاء السـحرة بمجـرد أن رأوا الآيـات.. وكـان في إمكـان أن أؤمن بعـد إيمـانهم، وبسـبب إيمـانهم.. لكن كبريـائي واستبدادي وقفا حجابا بيني وبين ذلك.

قلت: لقد قص الله تعالى علينا ذلك، فقال: فَأُلْقِيَ السَّـحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (70) قَالَ آمَنْتُمْ لَـهُ قَبْـلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِــيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّــحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْــدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَــدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى (71) قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي

فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (72) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (73) إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (74) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (75) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (76) ﴾ [طه: 70 - 76]

أخذ يصيح بصوت عال ممتلئ بكل ألوان الآلام، ثم راح يقول: لا أزال أتذكر جيدا تلك الطريقة الرهيبة التي عذبتهم بها.. ومع ذلك لم يخضعوا، ولم يلينوا، بل راحوا يسخرون من عذابي لهم.. وصدقوا .. فأنا الآن أتجرع في كل لحظة ومنذ آلاف السنين ملايين أضعاف العذاب الذي أذقته لهم.

قلت: لقد ذكر الله تعالى ذلك، فقال: ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (45) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (46) ﴾ [غافر: 45 - 47]

قال: لقد ذكرتني بذلك المؤمن الذي كان من أصحابي، ومن أتباعي في ظاهر الأمر، لكن قلبه كان مع الله.. كنت أشعر بذلك.. لكن يداي لم تكن تستطيعان النيل منه.. لست أدري لم.. لقد كنت أشعر كأنه يسكن في برج عاج لا يمكن لي ولا لجنودي أن يرقوا إليه، أو ينالوا منه.

قلت: لقد ذكره الله تعالى، وذكر خطبته البليغة، فقال: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (28) يَاقَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا ﴾ [غافر: 28، 29]

قاطعني فرعون، وقال: لقد امتلأت غيظا حين قال هذا الكلام، ولذلك رحت أصيح بكل قوة فيه، وفي الملأ من حولي: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: 29]

قلت: لكن صياحك لم يرهبك، ولم ينل من عزيمته، بل راح يعقب عليك بقوله: ﴿يَاقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (30) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ (31) وَيَاقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (32) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (33) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ (34) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (35)﴾ [غافر: 30 - 35]

قال: في ذلك الحين.. وبعد أن بلغ الغضب مني كل مبلغ، وخشيت على الملأ من حولي أن يتأثروا لقوله، أو يصيبهم ما أصاب السحرة، رحت أستنجد بوزيري المخلص هامان.. وحينها تذكرت حيلتي الشيطانية التي لا يزال كل المستكبرين والملاحدة يرددونها.. لقد قلت له: ﴿يَاهَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ﴾ [غافر: 36، 37]

قلت: لكن الرجل المؤمن لم يتأثر لكلماتك.. بل راح يصيح هو الآخر مخاطبا عقلك وعقول الملأ من حولك: ﴿ يَاقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (38) يَاقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (39) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (40) ﴾ [غافر: 38 - 40]

قال: حين قال هذا رحت أستعمل كل أساليب في الترغيب والترهيب عساها تنزله من برجه العاجي.. لكنه لم يتلفت لذلك بل راح يخاطبني ويخاطب الملأ حولي بقوله: ﴿وَيَاقَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (41) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (42) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (43) فَسَتَذْكُرُونَ

مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْـرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِـيرٌ بِالْعِبَـادِ (44)﴾ [غافر: 41 - 44]

قلت: أرى أن هذا الرجل المؤمن ومثله السحرة حـدثوك عن الجنة والنار.. وعن النعيم والعذاب..

قال: أجل.. كانوا يذكرونني هـذا الموقـف الـذي أعيش فيـه.. وكانوا يصورونه لي بكـل دقـة.. لكـني ــ لكبريـائي وغـروري ــ لم ألتفت لتلك المشاهد الجميلـة والمؤلمـة الـتي يصـورونها لي.. لأن بصيرتي كانت لا ترى إلا ذاتي، وقلبي لم يمكن يسكن فيه غـيري.. ولذلك حجبت عن الحقيقة، وأنا الآن أدفع فاتورة ذلك الحجاب.

قلت: لقد ذكر الله تعالى أنه ابتلاك وقومـك بـأنواع من البلاء لعلكم تبصرون، فقال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَـرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْـرِمِينَ ﴾ [الأعراف: 133]

قال: أجل.. فقد حصل لنا مـا ذكـره القـرآن بدقـة .. وتعـذبنا بذلك عذابا أليما.. واضطررت حينهـا إلى أن أسـتنجد بموسـى عن طريق بعض أتباعي المخلصين.. عساه يخلصنا مما حصل لنا.

قلت: لقـد ذكـر اللـه تعـالى ذلـك، فقـال:﴿ وَلَمَّا وَقَـعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَامُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِـدَ عِنْـدَكَ لَئِنْ كَشَـفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الأعراف: 134]

قــال: وقــد اســتجاب موســى المــؤمن الطيب الصــادق لاستنجادنا، فراح يدعو الله بكل صدق أن يخلصنا مما حصـل لنـا.. لكننا وبعد أن كشف عنا البلاء رحنا ننكث العهود.

قلت: لقد ذكر اللـه تعـالى ذلـك، فقـال: ﴿فَلَمَّا كَشَـفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ [الأعراف: 135]

قال: وحينهـا حلت بنـا سـنة اللـه الـتي لا تتبـدل ولا تتغـير ولا تحابي أحدا من الناس.

قلت: لقــد ذكــر اللــه تعــالى ذلــك، فقــال: ﴿فَانْتَقَمْنَـا مِنْهُمْ

فَأَغْرَقْنَـاهُمْ فِي الْيَمِّ بِـأَنَّهُمْ كَـذَّبُوا بِآيَاتِنَـا وَكَـانُوا عَنْهَـا غَـافِلِينَ [الأعراف: 136]

قال: صدق ربي فيما قال.. فقد أقام علينا الحجة، وأرسل لنا الرسل، لكن الشياطين الـتي كـانت مسـتوية على عـروش قلوبنـا حالت بيننا وبين التسليم للحق أو الإذعان لـه.. وهـذه هي العاقبـة التي ينالها كل مستكبر طاغية ظالم.

***

بينما كنا كذلك إذا بمـرآة تتـنزل من السـماء.. ثم يظهـر على صفحتها الجميلة الصـافية منـاظر ممتلئـة بالجمـال.. وكأنهـا الجنـة بعينها قد تنزلت في تلك الكهوف المظلمة..

تصورت في البداية أنها نـوع من النعيم يسـاق للمعـذبين في تلك الكهوف كنوع من الراحـة لهم.. لكـني وجـدت فرعـون يصـيح بكل أنواع الألم.. ويغمض عينيه حتى لا يرى تلك المرآة الجميلة.

فجأة ظهرت على سـطح المـرآة الصـقيلة صـورة امـرأة في منتهى الجمـال، كـانت تقـول بصـوت جميـل فصـيح: رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَـوْنَ وَعَمَلِـهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَـوْمِ الظَّالِمِينَ [التحريم: 11]

التفت لفرعون، وقلت: هل هذه امرأتك؟

قال: أجل.. كـانت في يـوم من الأيـام امـرأتي.. ولكن شـتان بيني وبينها اليوم.. فأنا في كل يوم أعـذب بـالنظر إليهـا، وبسـماع مناجاتها ودعائها.. لقد كانت آية من آيـات اللـه الـتي أرسـلها اللـه لي.. والتي لا تقل عن آيـة العصـا واليـد البيضـاء.. لكـني أعرضـت عنها.. بل رحت أعذبها عذابا شديد.. وها أنـذا، ومنـذ آلاف السـنين أتعذب لتعذيبي لها.. وأتعذب فوق ذلك لإعراضي عنها.

راح يعض على أصـابعه، حـتى يسـيل الـدم منهـا، ثم يقـول: ليتني سمعت لكلماتك.. ليتني سـمعت لتضـرعاتك.. ليتـني تخليت عن كبريائي واتبعتك.. ليت أمي لم تلدني.. يَـالَيْتَنِي اتَّخَـذْتُ مَـعَ الرَّسُـولِ سَـبِيلًا (27) يَاوَيْلَتَـا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِـذْ فُلَانًـا خَلِيلًا (28) لَقَـدْ

أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان: 27 - 29]

قلت: لقد أكرمها الله بأن ذكرها في القرآن الكريم.. بل أخبر رسول الله ﷺ بأنها إحدى سيدات الجنة الأربع، ففي الحديث عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ خط أربعة خطوط، فقال: (تدرون ما هذا؟) فقالوا: الله ورسوله أعلم، فقال ﷺ : (أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون ومريم ابنة عمران)[1]

قال: وحق لها ذلك.. فقد ابتلاها الله بأن تعيش في قصري لترى فيه كل ألوان النعيم.. لكنها تعرض عنها جميعا لتختار جوار الله.. وتختار ما عند الله.. لقد كان لها من القوة ما قهر كل كبريائي وجبروتي.

قلت: لقد روى المفسرون[2] عن بعضهم، قال: (كانت امرأة فرعون تعذّب بالشمس، فإذا انصرف عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها، وكانت ترى بيتها في الجنة)، ورووا عن آخر قوله: (كانت امرأة فرعون تسأل من غلب؟ فيقال: غلب موسى وهارون. فتقول: آمنت بربّ موسى وهارون؛ فأرسل إليها فرعون، فقال: انظروا أعظم صخرة تجدونها، فإن مضت على قولها فألقوها عليها، وإن رجعت عن قولها فهي امرأته؛ فلما أتوها رفعت بصرها إلى السماء، فأبصرت بيتها في السماء، فمضت على قولها، فانتزع الله روحها، وألقيت الصخرة على جسد ليس فيه روح)

قال: دعك من هذا.. فما حصل لها كان أعظم من أن يصوروه.. وسل نفسك عن سر ذكر الله تعالى لها في كتابكم.

قلت: لقد ذكر ذلك بعضهم، فقال: (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا لِلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ) وكان أعتى أهل الأرض على الله، وأبعده من الله، فو الله ما ضرّ امرأته كُفر زوجها حين أطاعت ربها، لتعلموا

1() رواه أحمد والحاكم.

2() انظر: تفسير الطبري (23/ 500)

أن الله حكم عدل، لا يؤاخذ عبده إلا بذنبه)[3]

قال: وذكرها ليبين لكم أن مواجهة المستكبرين من أمثالي لا تحتاج إلا إلى الإيمان القوي.. فقد كانت امرأة مستضعفة.. وكانت في قصري.. وكانت ترى بعينها ما أفعل بأعدائي.. ومع ذلك واجهتني ولم تركن لظلمي.. فأي حجة لمن يدعي الاستضعاف بعدها.

قلت: صدقت.. فقد جمع لها كل ألوان الاستضعاف، ومع ذلك كان لها من القوة ما واجهت به أعتى الطغاة.

***

انصرفت امرأة فرعون ليظهر بعدها شباب ممتلئين قوة وجمالا ونورا.. فراح فرعون يغض طرفه عن النظر إليهم.. ويصيح بكل ألوان الألم..

سألته عنهم، فقال: هؤلاء هم سحرتي .. هؤلاء هم الذين كنت أتعزز بهم، وأسيطر بهم على قلوب الرعية.. لكنهم ومع كل الجرائم التي شاركوني فيها، استطاعوا أن يتخلصوا منها في طرفة عين.. لقد عرفوا أن الله غفور رحيم.. فلذلك طرقوا أبواب مغفرته ورحمته، وسقوا من بحارها العذبة ما نقلهم من زمر الأشقياء إلى مصاف الأولياء.

قلت: لقد ذكر المفسرون أنك تفننت في تعذيبهم.

قال: وهم الآن يتفننون في تعذيني .. إن كل لحظة أراهم فيها، وأرى ما هم فيه من النعيم الذي كان يمكنني أن أشاركهم فيه يجعلني أتعذب بأعظم من عذاب النار نفسها.. إن نار رؤيتي لهم تمتد لفؤادي لتحرقه، وتغمره بكل ألوان الأسى.

فجأة اختفت المرآة.. ثم جاءت كلاليب كثيرة.. وأخذت بقدمي فرعون وعنقه وكل أعضائه.. وراحت تجرها على الجمر الملتهب.. فأسرعت مبتعدا عنها..

3() تفسير الطبري (23/ 500)

ما إن سرت قليلا حتى سـمعت صـوتا قبيحـا يصـيح: ويـل لي من آل بيت رسول الله.. ويل لي من صحابة رسـول اللـه.. الويـل لك يا أبي كيف زججت بي إلى هذه الأوكار.. أما في قلبك رحمة.. ألم تكن تعلم مصير المستبدين؟

قلت لصاحبي: من هذا الذي يرسل الويلات على نفسه وعلى أبيه.

قال: هذا يزيد.. وهو مثال المستبد الذي زاحم الأمر أهله، إنه كالجاهل الذي سجن الأطباء، وراح يداوي المرضى، فقتلهم.

قلت: ومن الأطباء الذين سجنهم؟

قال: آل البيت الكرام، والصحابة المنتجبون الذين تربـوا على عين رسول الله ﷺ، وعلى يديه الشريفتين.

قلت: ومن أبوه الذي يرسل عليه الويل؟

قال: معاوية الذي زاحم الأمر أهله، ولم يكتف بذلك، بـل راح يزاحمهم بولده، ويشوه جمال العدالة التي جاء بها رسول اللــه ﷺ بالكسروية والقيصرية.

قلت: فكيف سكتوا دون نصحه؟

قال: لقد قمعهم باستبداده.. ألم تسمع مـا قـال ابن سـيرين، فقد ذكر أن عمرو بن حزم وفد على معاوية فقال له: أذكرك اللــه في أمــة محمــد ﷺ بمن تسـتخلف عليهــا فقــال: (نصـحت وقلت برأيك، وإنه لم يبق إلا ابني وأبناؤهم وابني أحق)

قلت: ويله.. أهو ميراث يقتسمونه، أم أمانة يحملونها؟

قال: الوالي المستبد يتصور أن رعيته وما تملـك رعيتـه ملـك من أملاكه.

سمعت صياحا عظيما تنهد له الجبال، وترتعش الأرض: الويل

لي منك يا ابن بنت رسول الله.. الويل لي منك يا حسين..

قلت: ما باله؟

قال: إنه يسترجع ذكرياته المريرة، يوم أرسل في قتل الحسين، وآل بيت رسول الله ﷺ.

قلت: فما فعل الحسين؟

قال: لقد كان الحسين يمثل القوة التي تقف في وجه الاستبداد.. فلذلك لم يبايع يزيدا.. ولم يرض لدين جده ﷺ أن ينتقص، وتنتقض عراه، وهو حي.. لقد قال يعبر عن ذلك: (إني لم أخرج أشراً، ولا بطراً ولا مفسداً، ولا ظالماً، وإنما خرجت لطلب الاصلاح في أمة جدي، أريد أن آمر بالمعروف وأنهي عن المنكر فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق، ومن رد علي هذا أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم بالحق، وهو خير الحاكمين)

قلت: أعلم قصة ذلك.. فقد كان أهل الكوفة يكتبون إليه يدعونه إلى الخروج إليهم زمن معاوية، وهو يأبى فلما بويع يزيد أقام على ما هو مهموماً يجمع الإقامة مرة ويريد المسير إليهم أخرى، فأشار عليه ابن الزبير بالخروج، وكان ابن عباس يقول له: لا تفعل، وقال له ابن عمر :(لا تخرج فإن رسول الله ﷺ خيره الله بين الدنيا والآخرة فاختار الآخرة، وإنك بضعة منه ولا تنالها ـ يعني الدنيا ـ) واعتنقه وبكى وودعه، فكان ابن عمر يقول: غلبنا حسين بالخروج، ولعمري لقد رأى في أبيه وأخيه عبرة.

وبعث أهل العراق إلى الحسين الرسل والكتب يدعونه إليهم، فخرج من مكة إلى العراق في عشر ذي الحجة، ومعه طائفة من آل بيته رجالا ونساء وصبياناً، فكتب يزيد إلى واليه بالعراق عبيد الله بن زياد بقتله، فوجه إليه جيشاً قوامه أربعة آلاف، عليهم عمر بن سعد بن أبي وقاص، فخذله أهل الكوفة، فقتلوه، وقتل معه ستة عشر رجلا من أهل بيته، وجيء برأسه في طست حتى وضع بين يدي ابن زياد.

التفت إلى صاحبي، فإذا دموعه تذرف بشدة، قلت: ما بالك؟

قال: لقد ذكرتني بمواجع لن يمحوها الدهر.. لقد كنت حاضرا ذلك الموقف..

قلت: هل كنت حاضرا.. لقد سمعت أنه لما قتل الحسين مكثت الدنيا سبعة أيام والشمس على الحيطان كالملاحف المعصفرة والكواكب يضرب بعضها بعضاً، وكسفت الشمس ذلك اليوم واحمرت آفاق السماء ستة أشهر بعد قتله، ثم لا زالت الحمرة ترى فيها بعد ذلك ولم تكن ترى فيها قبله.

وذكروا أنه لم يقلب حجر ببيت المقدس يومئذ إلا وجد تحته دم عبيط، وصار الورس الذي في عسكرهم رماداً، ونحروا ناقة في عسكرهم فكانوا يرون في لحمها مثل النيران وطبخوها فصارت مثل العلقم، وتكلم رجل في الحسين بكلمة فرماه الله بكوكبين من السماء فطمس بصره.

قال: هذا كله هين بسيط.. الخطر الأعظم هو تحول الأمة من النظام الذي اختاره الله لها إلى النظام الذي سنه المستبدون..

قلت ـ وكأني لم ألتفت لكلامه ـ : بل قد ذكروا أن الجن رثت الحسين، فقد روى أبو نعيم في الدلائل عن أم سلمة قالت: سمعت الجن تبكي على حسين وتنوح عليه.

وأخرج ثعلب في أماليه عن أبي خباب الكلبي قال: أتيت كربلاء فقلت لرجل من أشراف العرب: أخبرني بما بلغني أنكم تسمعون نوح الجن فقال: ما تلقى أحداً إلا أخبرك أنه سمع ذلك، قلت: فأخبرني بما سمعت أنت قال: سمعتهم يقولون:

مسح الرسول   فله بريق في

أبواه من عليا   ش وجده خير

قال: ليس الشأن أن تبكي الجن، بل الشأن أن تبكوا أنتم.. وليس الشأن أن تبكوا، بل الشأن أن تختلط دماؤكم مع دماء الحسين، لتنصروا المستضعفين، وتقاوموا الاستبداد.

قلت: لم لم يسمع الحسين لتلك النصائح الرقيقة التي

وجهت له؟

قال: إن الحسـين لم يكن يمثـل نفسـه في ذلـك الحين، ولم يكن حريصا على حياته.. لقد كان يعلم أن المستبدين لن يتركوه..

قلت: فلماذا خرج إذن ما دام يعلم ذلك؟

قـال: لقـد خـرج ليحفـظ دين جـده من التحريـف الـذي أراد المستبدون إيقاعه بهذا الدين.

قلت: ولكنه فشل في تحقيق ما صبا إليه.

صاح صاحبي بقوة: لا.. لم يفشل.. لقد كـانت الشـرارة الـتي أشعلها الحسين في وجه الاستبداد هي التي أحرقت بعد ذلـك كـل قصور المستبدين، وهي التي دمرت كل قلاعهم..

قلت: بأي سلاح استطاع أن يفعل كل هذا؟

قال: بسلاح الدم الذي يهدر في سبيل اللـه.. لقـد كـان الـدم الذي سال منه، ومن آل بيته أعظم محطم لأسـطورة الاسـتبداد.. ألم تسمع رؤيا أم سلمة؟

قلت: بلى.. فقد روي عن ابن عباس قال: رأيت رسـول اللـه ﷺ بنصف النهار أشعث أغبر وبيـده قـارورة فيهـا دم، فقلت: بـأبي وأمي يا رسول الله ما هذا؟ قال :(هـذا دم الحسـين وأصـحابه لم أزل ألتقطـه منـذ اليـوم)، فأحصـى ذلـك اليـوم، فوجـدوه قتـل يومئذ[1].

قال: أتدري تعبير هذه الرؤيا؟

قلت: ليس لي من علوم التأويل ما أعبر به الرؤى.

قال: لقد كان ﷺ يجمع دم الحسين ودم أهل بيته، ليصبح ذلك الـدم دليلا للمستضـعفين يسـتنولون بـه النصـر، ويسـتمدون منـه الهدي، ويقمعون به الظلم، ولا يبـالون في سـبيل ذلـك أن تختلـط دمـاؤهم بـتراب الأرض.. لأن رسـول اللـه ﷺ سـيجمعها في محـل

---

[1] رواه البيهقي في الدلائل.

واحد مع دم الحسين .

قلت: لقد ذكرتني برؤيا أخرى، أرجو أن تعبرها لي.

قال: وما رأيت؟

قلت: لا.. لم أر أنا.. بل هذه الرؤيا رواها الترمذي عن امــرأة قـالت: دخلت على أم سـلمة، وهي تبكي، فقلت :(مـا يبكيـك؟)، قالت: رأيت رسول الله ﷺ في المنام وعلى رأسه ولحيته التراب، فقلت: ما لك يا رسول الله قال :(شهدت قتل الحسين آنفاً)[1]

قال: هذه الرؤيا رسالة وجهها رسول الله ﷺ للأمة.

قلت: ما يقول فيها؟

قال: إن ما حصل للحسين كان أعظم إهانة لرسول الله ﷺ.. ولا ينبغي للأمة أن تسكت على إهانة نبيها.

قلت: ولكن يزيد الآن في أوكار الاستكبار، فكيف تنهض الأمة لنصرة الحسين.

قال: بالنهوض في وجه الاستبداد.. فلا يمكن أن يكرم رسول الله ﷺ بأعظم من النهوض في وجههم.

قلت: ولكن دماء المستضعفين قد تسيل.

قال: ستختلط حينها بدماء الحسين.. وحسبها بذلك شرفا.

قلت: أنت تحرض على الثورة.

قال: أنا لا أحرض على ثـورة أهـل الحـرب، أنـا أحـرض على ثورة أهل السلام.

قلت: ولكن الحسين استعمل ثورة أهل الحرب؟

قال: لا.. لقد استعمل ثورة أهل السلام.

قلت: كيـف ذلـك.. لقـد سـمعت صـرير السـيوف في قصـة

---

[1] رواه الترمذي.

كربلاء.. ولا يمكن أن نمثل وقعة كربلاء من دون سيوف.

قال: تلك سيوف المستبدين.

قلت: والحسين.. ألم يكن يملك سيفا؟

قال: لقد كان يملك قبل السيف أصنافا من أسلحة أهل السلام، لم يحق له أن يحمل السيف قبل امتلاكها.

قلت: فما هي؟

قال: ستعرفها في حصون المستضعفين.

قلت: ألسنا في حصون المستضعفين؟

قال: لا.. لن تدخلها حتى تخرج من أوكار المستكبرين.

سمعت صوتا شديدا، يقول: ويل لي من أهل الحرة..

قلت: أعرف هذا.. ففي سنة ثلاث وستين بلغ يزيدا أن أهل المدينة خرجوا عليه وخلعوه، فأرسل إليهم جيشاً كثيفاً، وأمرهم بقتالهم، ثم المسير إلى مكة لقتال ابن الزبير، فجاءوا وكانت وقعة الحرة على باب طيبة.

بكى صاحبي، وقال: وما أدراك ما وقعة الحرة؟.. لقد ذكرها الحسن مرة[1]، فقال :(والله ما كاد ينجو منهم أحد.. قتل فيها خلق من الصحابة ومن غيرهم، ونهبت المدينة، وافتض فيها ألف عذراء، فإنا لله وإنا إليه راجعون).. أتدري ما سببها؟

قلت: أجل.. فقد خلع أهل المدينة يزيدا، لما بلغ به الإسراف حده الأقصى، وقد روي أن عبد الله بن حنظلة بن الغسيل قال : (والله ما خرجنا على يزيد حتى خفنا أن ترمى بالحجارة من

1() بل روي أن رسول الله ﷺ خرج في سفر من أسفاره، فلما مر بحرة زهرة وقف فاسترجع، فساء ذلك من معه، وظنوا أن ذلك من أمر سفرهم، فقال عمر:(يا رسول الله ما الذي رأيت !؟) فقال رسول الله ﷺ :(أما إن ذلك ليس من سفركم هذا)، قالوا : (فما هو يا رسول الله !؟) , قال :(يقتل بهذه الحرة خيار أمتي بعد أصحابي)، قال ابن كثير : هذا مرسل، ولا يضره إرساله.

السماء.. إنه رجل ينكح أمهات الأولاد والبنات والأخوات ويشرب الخمر ويدع الصلاة)

وقال الذهبي: ولما فعل يزيد بأهل المدينة ما فعل مع شربه الخمر وإتيانه المنكرات اشتد عليه الناس وحرج عليه غير واحد ولم يبارك الله في عمره وسار جيش الحرة إلى مكة لقتال ابن الزبير، فمات أمير الجيش بالطريق، فاستخلف عليهم أميراً وأتوا مكة فحاصروا ابن الزبير وقاتلوه ورموه بالمنجنيق وذلك في صفر سنة أربع وستين واحترقت من شرارة نيرانهم أستار الكعبة سقفها.

قلت: ما بالهم لا يراعون لله حرمة، فهم لم يراعوا حرمة المدينة التي قال فيها رسول الله ﷺ:(من أخاف أهل المدينة أخافه الله، وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين)[1].. ولم يراعوا حرمة البيت الحرام الذي قال فيه تعالى: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً ﴾ (البقرة: 125) وقال فيه :﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً ﴾ (آل عمران: 97)، وقال فيه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلا الْهَدْيَ وَلا الْقَلائِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً و﴾ (المائدة: 2)

قال: وهل عظموا الله حتى يعظموا مدينة رسوله، أو مدينة خليله؟

قلت: إن من قومي من يبالغ في يزيد حتى يكاد يلحقه بآل البيت الطاهرين، أوالصحابة المجتبين.

قال: أولئك ألسنة الطغاة.

قلت: إن منهم من يضع عمائم العلماء، ويلبس طيالستهم.

قال: فأخبرهم بما رواه نوفل بن أبي الفرات، قال: كنت عند عمر بن عبد العزيز فذكر رجل يزيد فقال: قال أمير المؤمنين يزيد بن معاوية، فقال: تقول أمير المؤمنين، وأمر به فضرب

[1] رواه مسلم.

عشرين سوطاً.

وأخبرهم ـ قبل ذلك وبعده ـ بمقوله الحسن البصـري، واعـظ هذه الأمة وعالمها، فقد قال في معاوية وابنــه :(أربـع خصـال كن في معاوية، لو لم تكن فيه إلا واحدة لكانت موبقـة : إنـتزاؤه على هذه الامة بالسيف حتى أخـذ الامـر من غـير مشـورة وفيهم بقايـا الصـحابة وذوو الفضـيلة، واسـتخلافه بعـده ابنـه - يزيـدا - سـكيرا خميرا يلبس الحرير ويضرب بالطنـابير، وادعـاؤه زيـادا، وقـد قـال رسول الله ﷺ :(الولد للفراش وللعاهر الحجر)، وقتلـه حجـرا(1)، وأصحاب حجر، فيا ويلا له من حجر! ويا ويلا له من حجر وأصحاب حجر!)(2)

قلت: إن ما تردده هو نفس ما يـذكره الشـيعة الـذين يطلـق عليهم قومي لقب [الرافضة]، ويسبونهم بكل ألـوان السـباب، بـل يسلبون منهم لقب الإيمان، ويرموهم بالكفر البواح.

قال: ألا زلتم تنشغلون بتصنيف الناس.. الحق أقـول لـك: لن تنتصـروا على أعـدائكم، ولن تخرجـو من ضـعفكم، حـتى لا يكـون فخركم إلا بإسلامكم.. ألم تسمع قوله ﷺ :(لا تقوم الساعة حــتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون حتى يختـبئ اليهـودي وراء الحجر والشجر فيقول الحجـر والشـجر : يـا مسـلم! يـا عبـد الله! هذا يهودي خلفي فتعـال فاقتلـه، إلا الغرقـد فانـه من شـجر اليهـود)(3).. فقـد أخـبر ﷺ أن الحجـر والشـجر يسـمي المسـلم مسلما، بل يسميه عبد الله، ولا يسميه سنيا ولا شيعيا.

قلت: ولكن السنة درجة أخرى فـوق الإسـلام.. إنهم الطائفـة المنصورة التي يتنزل عليها النصر دون سائر الطوائف.

قـال: السـنة أن تعيشـوا الحقـائق لا أن تفخـروا بهـا.. وأول السـنة أن لا تحتكـروا السـنة، فالسـنة حـق الأمـة جميعـا بجميـع

1() حجر بن عدي صحابي مترجم في سـير أعلام النبلاء (2 /ـ 463) والاصـابة (1 / 329)، وهو أحد الصحابة العباد.

2() الكامل لابن الاثير:3 / 487.

3() رواه مسلم.

مناهجها.. وأول السنة أن لا ترضوا تسمية غير ما سماكم به ربكم، ألم يقل الله تعالى: وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (الحج:78)

قلت: صدقت في هذا.. لقد أهلكتنا الطائفية حتى نسينا إسلامنا انشغالا بطوائفنا.

قال: ستعرف كيف قضى أهل السلام على خفافيش الطائفية.

قلت: أين.. وكيف ذلك؟

قال: ستعرف ذلك عندما ترحل إلى حصن الوحدة.

قلت: شبهة أخرى أريدك أن تجيبني عنها.

قال: ما أكثر شبهكم.. وما أولعكم بها.

قلت: إن نفرا من قومي يحذرون من الخوض في هذا حتى لا نشوه تاريخنا، بل قد يضعون الأقاصيص الباطلة ليستروا العورات الفاضحة.

قال: لا.. التاريخ محل العبر.. وتاريخكم لم يسطره حكامكم المستبدون، ولا قادتكم المتعجرفون.. بل سطره العلماء والأولياء والشهداء.. تاريخكم هو تاريخ هؤلاء وسيرهم لا تواريخ الطواغيت.. أخبرني: كيف يعرف الناس عظم التضحية التي قام بها الحسين لو سترتم تاريخ يزيد؟.. إنكم ستكافئون المجرم المستبد أعظم مكافأة.. وتحتقرون مثال التضحية أعظم احتقار.

قلت: صدقت.. لقد فاتني أن أنظر إلى الجانب المشرق الذي يمتلئ به تاريخنا.. بل إنه لولا هؤلاء الطواغيت من المستبدين ما أدركنا قيمة هؤلاء العظماء، ولا عظم التضحيات التي قدموها.. إنهم كالسواد الذي يشرق فيه البياض.. أو كالليل

الذي يطل ليبين جمال نور الشمس.

قلت: شبهة أخرى أرجو أن تجيبني عنها.

قال: أعرفها .. أنت تريد أن تذكر لي أن من قومك من يقدم نصيحة ابن عمر على موقف الحسين.

قلت: أجل .. كيف عرفت ذلك؟

قال: وهل يسمع الناس من رؤوس الضلال الذين اتخذوهم أئمة إلا ذلك؟

قلت: فما جوابك على هذه الشبهة؟

قال: أجبني من هو سيد شباب أهل الجنة .. هل هو ابن عمر، أم الحسين؟

قلت: بل الحسين .. ففي الحديث الصحيح عن حذيفة، قال: أتيت النبي ﷺ، فصليت معه الظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، ثم تبعته، وهو يريد يدخل بعض حجره، فقام، وأنا خلفه، كأنه يكلم أحدا، قال : ثم قال : من هذا؟ قلت : حذيفة. قال : أتدري من كان معي؟ قلت : لا. قال : فإن جبريل جاء يبشرني، أن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة. قال : فقال حذيفة : فاستغفر لي ولأمي. قال : غفر الله لك، يا حذيفة، ولأمك (1).

قال: ومن هو الذي ذكر رسول الله ﷺ أنه منه .. هل هو ابن عمر، أم الحسين؟

قلت: بل الحسين .. ففي الحديث الصحيح قال رسول الله ﷺ : (حسين مني وأنا منه، أحب الله من أحب حسينا)(2)

قال: فمن الذي اعتبر رسول الله ﷺ حبه شرطا لحبه؟

قلت: لاشك أنه الحسين .. ففي الحديث عن علي قال: قال رسول الله ﷺ للحسين بن علي: (من أحب هذا فقد أحبني)(3)،

(1) رواه أحمد.

(2) رواه الحاكم في المستدرك.

(3) رواه الطبراني.

وقال يعني الحسن والحسين: (اللهم! إني أحبهما فأحبهما، وأبغض من أبغضهما)(1)، وقال: (اللهم! إني أحبهما فأحبهما)(2)، وقال: (الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة، من أحبهما فقد أحبني، ومن أبغضهما فقد أبغضني)(3)، وقال: (من أحب الحسن والحسين أحببته، ومن أحببته أحبه الله، ومن أحبه الله أدخله جنات النعيم، ومن أبغضهما أو بغى عليهما أبغضته ومن أبغضته أبغضه الله، ومن أبغضه الله أدخله جهنم وله عذاب مقيم)(4)

قال: ومن هو المطهر من الرجس .. الذي لا يقربه الشيطان، فيوسوس له، ولا يستطيع أن يؤثر فيه .. هل هو ابن عمر، أم الحسين؟

قلت: بل الحسين .. فقد ورد في الحديث عن عمر بن أبي سلمة قال: لما نزلت على النبي ﷺ : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ (الأحزاب: 33) في بيت أم سلمة دعا فاطمة وحسنا وحسينا فجللهم بكساء وعلي خلف ظهره جللهم بكساء ثم قال: (اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا)(5)

قال: فمن الذي ورث رسول الله ﷺ وكان أشبه الناس به .. هل هو ابن عمر، أم الحسين؟

قلت: بل الحسين .. ففي الحديث عن فاطمة ابنة رسول الله ﷺ أنها أتت بالحسن والحسين إلى رسول الله ﷺ في شكواه التي توفي فيها فقالت: يا رسول الله هذان ابناك فورثهما شيئاً. فقال: (أما حسن فله هيبتي وسؤددي، وأما حسين فله جراءتي وجودي)(6)

قال: ومن الذي أمرنا رسول الله ﷺ أن نسير خلفه ونتبعه حتى ننجو من الضلالة؟

---

(1) رواه البيهقي في الشعب، والطبراني في الكبير.

(2) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

(3) رواه ابن عساكر.

(4) رواه الطبراني في الكبير.

(5) رواه الترمذي وغيره.

(6) رواه الطبراني.

قلت: لاشك أن ذلك لا ينطبق إلا على الحسين، فالحسين من العترة التي قال فيها رسول الله ﷺ : (إني تارك فيكم خليفتين، كتاب الله حبل ممدود ما بين السماء والأرض وعترتي أهل بيتي وإنهما لن يتفرقا حتى يردا علي الحوض)[1]

قال: فهذا هو جواب ما طرحته من شبهة.

قلت: لم أفهم .. ما تقصد بإيراد أحاديث هم يوردونها؟

قال: هم يروونها .. ولكنهم يضعون بينهم وبينها آلاف الحجب.

قلت: أنت تعرف غفلتي .. وعدم طاقتي على القراء ما بين السطور .. فعلمني.

قال: أرأيت لو أن طبيبا خبيرا نال تزكية من جميع المراكز الطبية هل ترى للمرضين والعامة من الأطباء أن يتقدموه أو يجادلوه؟

قلت: لا .. فللخبرة التي دلت عليها التزكية محلها، وقد قال ﷺ : (أنزلوا الناس منازلهم)[2]

قال: فكيف ينزلونه منزلته التي يقرون بها، ثم يقدمون غيره عليه .. ويقتدون بغيره، ويتركونه، بل يعتبرون تقليده بدعة، والسير خلفه ضلالا.

***

بينما نحن كذلك إذ نزلت مرآة من السماء في منتهى الدقة والجمال، وقد صورت فيها الجنة بقصورها وأنهارها.. ثم ظهر في المرآة شباب لا يقلون عنها جمالا وعذوبة ورقة.. ثم سمعت بعدها أصواتا تصيح من الألم، فالتفت إليها، فإذا بيزيد وكثير ممن حشر معه، يصرخون، وكأن عذابا شديدا سلط عليهم، يرونه ولا أراه.

سألت صاحبي معلم السلام عن أولئك الشباب، وسر تألم يزيد لمرآهم، فقال لي: نحن نطلق عليهم لقب [الحسينيين]

1() رواه أحمد والنسائي وغيرهما بألفاظ مختلفة والحديث متواتر.

2() رواه مسلم.

قلت: هل تقصد أولئك الذين ساندوا الحسين ووقفوا معه في تلك الأيام الصعبة.. وقد أثنى عليهم لأجل ذلك ثناء عطرا، فقال: (إني لا أعلم أصحابا أولى ولا خيراً من أصحابي، ولا أهل بيت أبرّ ولا أوصل من أهل بيتي، فجزاكم الله عنّي جميعا خيرا)[3]

بل شهد الأعداء لهم بالشجاعة والشهامة، فقد قيل لرجل شهد يوم الطف مع عمر بن سعد: ويحك أقتلتم ذرية رسول الله ﷺ؟ فقال: (عضضت بالجندل؛ إنك لو شهدت ما شهدنا لفعلت ما فعلنا. ثارت علينا عصابة، أيديها في مقابض سيوفها كالأسود الضاربة تحطم الفرسان يمينا وشمالاً، وتلقي أنفسها على الموت؛ لا تقبل الأمان ولا ترغب في المال ولا يحول حائل بينها وبين الورود على حياض المنية، أو الاستيلاء على الملك، فلو كففنا عنها رويداً لأتت على نفوس العسكر بحذافيرها فما كنا فاعلين لا أمّ لك)

قال: بل أقصد كل من وقف معه في تلك الأيام، وما بعدها من الأيام.. فعاشوراء تتكرر في كل زمن.. وكربلاء يمكن أن تحل في أي مكان.

قلت: والحسين؟

قال: والحسين كذلك يمكنك أن تراه في شخص كل ثائر على الظلم، داعية إلى العدالة.. فإن نصرته، فقد نصرت الحسين.. وإن خذلته فقد خذلت الحسين.

رأيت شابا من خلال المرآة ينظر إلينا، وكأنه يتحدث معنا، لكني لم أطق أن أسمع صوته، ولا أن أفهم مراده.. لكن صاحبي معلم السلام راح يجيبه بلغة لم أفهمها، وبإشارات لم أعرف مقاصده منها.

سألته عن أمرهما، فقال لي: هذا أنس بن الحرث الأسدي الكاهلي ، وقد رزق فضل الصحبتين صحبة رسول الله ﷺ .. وصحبة آل بيته الطاهرين.. وكان من الذين كرمهم الله بالشهادة

---

[3] اللهوف:79.

مع الإمام الحسين.. وقد كان مما رواه من الحديث قوله: سمعت رسول الله ﷺ يقول ـ والحسين بن علي في حجره ــ: (إنّ ابني هذا يقتل بأرض من أرض العراق ألا فمن شهده فلينصره)[1]

وقد كان من جملة حديثي معه أن سألته عن سر نصرته للحسين، فأخبرني بهذا الحديث..

قلت: من رزق الصحبتين ينبغي أن لا يكون إلا شيخا كبيرا، فكيف أراه شابا يافعا؟

قال: أنسيت أن الشيخوخة والهرم لا ترتبط إلا بحياتكم الدنيا.. أنسيت أن الشيخوخة قد تمتد للجسد فتضعفه لكنها لن تمتد أبدا للروح إلا إذا استسلمت الروح للجسد.

قلت: صدقت في هذا.. وقد أقام علينا هذا الشيخ الجليل الحجة، حتى لا نحتج بشيخوختنا عن مواجهة الباطل، أو الوقوف مع الحق.

رأيت شابا آخر، جرى بينهما من الحديث ما جرى مع الأول، فسألته عنه، فقال لي: هذا حبيب بن مظاهر الأسدي.. وقد رزق مثل صاحبه فضل الصحبتين [2] .. وقد روي أن ميثم التمّار مر على فرس له فاستقبله حبيب بن مظاهر الأسدي عند مجلس بني أسد فتحادثا حتّى اختلف عنقا فرسيهما ، ثمّ قال حبيب: لكأنّي بشيخ أصلع ضخم البطن يبيع البطيخ عند دار الرزق ، قد صلب في حب أهل بيت نبيّه ﷺ، فتبقر بطنه على الخشبة. فقال ميثم : وإنّي لأعرف رجلا أحمر له ضفيرتان ، يخرج لنصرة ابن بنت نبيّه فيقتل ويجال برأسه في الكوفة. ثمّ افترقا ، فقال أهل المجلس : ما رأينا أكذب من هذين. قال : فلم يفترق المجلس حتّى أقبل رشيد الهجريّ فطلبهما ، فقالوا : افترقا وسمعناهما يقولان كذا وكذا. فقال رشيد: (رحم الله ميثما نسي ويزاد في عطاء الذي يجيء بالرأس مائة درهم). ثمّ أدبر ، فقال القوم : هذا والله أكذبهم. قال : فما ذهبت الأيّام والليالي حتّى رأينا ميثما مصلوبا

---

[1] أسد الغابة : 1 / 123، الإصابة : 1 / 68.

[2] جمهرة النسب : 1 / 241..

على بـاب عمـرو بن حـريث. وجيء بـرأس حـبيب قـد قتـل مـع الحسين، ورأينا كلّما قالوا[1].

قلت: أجل .. لقد قرأت عن شهامته ونبله الكثير.. ومن ذلــك أن مــا رواه الثقــاة من المــؤرخين أن أنّ حبيبــا لمّــا وصــل إلى الحسين، ورأى قلّة أنصـاره وكـثرة محاربيـه ، قـال للحسـين : إنّ هاهنا حيّا من بني أسـد فلـو أذنت لي لسـرت إليهم ودعـوتهم إلى نصرتك ، لعلّ الله أن يهديهم ويدفع بهم عنـك. فـأذن لـه الحسـين فسار إليهم حتّى وافـاهم فجلس في نـاديهم ووعظهم ، وقـال في كلامه : يا بني أسد ، قد جئتكم بخير مـا أتى بـه رائـد قومـه ، هـذا الحسين بن علي أمير المؤمنين وابن فاطمة بنت رسول اللـه قـد نـزل بين ظهـرانيكم في عصـابة من المؤمـنين ، وقـد أطـافت بـه أعداؤه ليقتلوه ، فأتيتكم لتمنعوه وتحفظوا حرمـة رسـول اللـه ﷺ فيه ، فو الله لئن نصرتموه ليعطينّكم الله شرف الـدنيا والآخـرة ، وقـد خصصـتكم بهـذه المكرمـة ، لأنّكم قـومي وبنـو أبي وأقـرب الناس منّي رحما. فقام عبد الله بن بشـير الأسـدي وقـال : شـكر الله سعيك يا أبا القاسم ، فو الله لجئتنا بمكرمة يستأثر بها المـرء الأحب فـالأحب ، أمّـا أنـا فـأوّل من أجـاب ، وأجـاب جماعـة بنحـو جوابه فنهـدوا مـع حـبيب ، وانسـلّ منهم رجـل فـأخبر ابن سـعد ، فأرسل الأزرق في خمسمائة فـارس فعارضـهم ليلا ومـانعهم فلم يمتنعـوا فقـاتلهم ، فلمّـا علمـوا أن لا طاقـة لهم بهم تراجعـوا في ظلام الليل وتحمّلوا عن منازلهم. وعاد حبيب إلى الحسين فأخبره بما كان. فقال: (وَما تَشاؤُنَ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللهُ) ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله [2].

رأيت شابا ثالثا، جرى حديث بينـه وبين صـاحبي مثلمـا جـرى مع سابقيه، فسألته عنه، فقال لي: هذا الحر بن يزيد الريـاحي [3] ..

---

[1] منتهى المقال في أحوال الرجال 2 / 328.

[2] تسلية المجالس : 2 / 260 ـ 261.

[3] أحد زعماء أهل الكوفة وساداتها، وكان شريفاً في قومه جاهليةً وإسلاماً، وقـد أرسله عبيد الله بن زياد ليسـاير الإمـام الحسـين، ويـراقب حركتـه، وقـد نـدم في اللحظـات الأخيرة في يوم عاشوراء؛ فالتحق بركب الإمام الحسين، واستشهد معه بكربلاء سنة 61 هـ.

قاطعته بقولي: ولكن كيف نال هـذه المرتبـة الرفيعـة.. وقـد كان في بداية أمره مع ابن زياد.

قـال: ليس الشـأن في بدايـة أمـره .. الشـأن في نهايتـه.. أنسيت السحرة، وكيف انقلبوا في طرفـة عن من عـالم الأشـقياء إلى عالم السعداء.

قلت: أجل.. وقد ختم لهم بالشهادة.

قـال: وهكـذا كـان الريـاحي، فقـد عـرف كيـف يتخـذ القـرار المناسب في الوقت المناسب.

***

بعد أن تشرفت بالتعرف على ثلـة طيبـة من أصـحاب الإمـام الحسين ممن استشهد معه في كربلاء.. قدمت ثلة من النساء في قمة الجمال والوقار.. فسألته عنهن، فقال: هؤلاء الزينبيـات اللاتي مثلن صورة من صور مواجهة الاستكبار.

قلت: ما تعني؟

قال: لقد شاء الله أن يكمل النساء دور الرجـال.. فلـذلك لم تكن لثورة الإمام الحسين لتفعل مفعولها، وتؤدي دورها في الحياة لولا هؤلاء الزينبيات.

قلت: أعـرف السـيدة زينب.. وأعـرف مكانتهـا العظيمـة في قلوب جميع المسلمين، وقـد تـرجم لهـا المـؤرخ الكبـير ابن الاثـير بقوله : (زينب بنت علي بن أبي يطالب القريشية الهاشمية، وأمها فاطمة بنت رسـول اللـه ﷺ أدركت النـبي ﷺ وولـدت في حياتـه.. وكانت امرأة عاقلة لبيبة، جزلة، زوجها أبوها علي من عبد الله بن أخيه جعفـر، فولـدت لـه علياً وعونـاً الأكـبر وعباسـا ومحمـداً وأم كلثوم، وكـانت مـع أخيهـا الحسـين لمـا قتـل وحملت الى دمشـق وحضرت عند يزيد بن معاويـة، وكلامهـا ليزيـد حين طلب الشـامي أختها فاطمة بنت علي من يزيد مشهور مذكور في التواريخ، وهــو يدل على عقل وقوة جنان)[1]

---

[1] أسد الغابة في معرفة الصحابة: 5/469.

قال: ما ذكره هذا المؤرخ من عقلها وقوة جنانها هـو الصـفة الكبرى التي يشترك فيها هؤلاء الزينبيـات جميعـا، فلا يمكن لثـورة أهل السلام أن تتم دون عقل وقوة.

قلت: ما صدر عنها في كربلاء وما بعدها من الأيام أكبر دليـل على ذلك، فعندما شاهدت الإمام الحسين مقتولا مسلوب العمامة والرداء صاحت بابن سعد: (ويحك أيقتل أبو عبـد اللـه وأنت تنظـر إليـه؟!)، فصـرف وجهـه عنهـا، فصـاحت : (ويحكم، أمـا فيكم مسلم؟)، فلم يجبها أحد.

وعنـدما مـر ركب الأسـارى على الحسـين وأصـحابه، فصـاح النسـاء ولطمن خـدودهن، صـاحت زينب بكـل قـوة: (يـا محمـداه صلى عليك ملائكة السماء، هذا الحسين بـالعراء، مرمـل بالـدماء، مقطع الأعضاء وبناتك سبايا، وذريتك مقتلـة، تسـفى عليهـا الصـبا، فأبكت كل عدو وصديق)[1]

وعندما دخبت الكوفة، خاطبت القوم قائلة: (يـا أهـل الكوفـة ألا وهل فيكم إلا الصلف النطف، والصـدر الشـنف؟، خـوارون في اللقاء، عاجزون عن الأعداء، ناكثون للبيعة، مضيعون للذمة، فبئس ما قـدمت لكم أنفسـكم أن سـخط اللـه عليكم وفي العـذاب أنتم خالدون)

فجأة سمعت صـوتا من بعيـد، التفت إليـه فـإذا بـه رأس من الرؤوس المحيطة بيزيد، وقد أحاطت بـه النـيران من كـل جـانب، فلم أسمع إلا صوته من غير أن أتبين ملامحه.. كان يقـول: أنـا ابن زياد.. أنا ذلك الذي ارتكب أبشع الجـرائم في التـاريخ بكـل قسـوة وبرودة، لكني لم أستطع تحمل تلـك الكلمـات الـتي واجهتـني بهـا هذه المرأة التي تتحدثون عنها.. لقـد ظلت كلماتهـا كالسـم ينهش بدني إلى أن قضى على حيـاتي الـدنيا.. وهـا هـو يتبعـني في هـذه الكهوف المظلمة، ليذيقني أضعاف ما أذاقني في تلك الدار.

لقـد قلت لهـا شـامتا: (الحمـد للـه الـذي فضـحكم وأكـذب أحدوثتكم)، فأجـابتني بكـل قـوة: (الحمـد للـه الـذي أكرمنـا بنبيـه

---

[1] () الكامل في التاريخ: 3/434.

محمد ﷺ وطهرنا من الرجس تطهيراً، وإنما يفتضح الفاسق، ويكذب الفاجر، وهو غيرنا والحمد لله)، فقلت لها: (كيف رأيت فعل الله بأهل بيتك؟)، فقالت: (كتب الله عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجهم، وسيجمع الله بينك وبينهم فتحاجون إليه، وتختصمون عنده، فانظر لمن الفلج يومئذ، ثكلتك أمك يابن مرجانة!!)

ما إن سكت ابن زياد، حتى سمعت صوتا آخر لا يقل عنه قبحا، التفت فإذا بيزيد يردد بكل ألم: لا تذكرني يا ابن زياد، فأنا أسمع في كل لحظة خطبتها التي واجهتني بها عندما كنت أسخر من رأس الحسين، وقد وضعته في طشت، ورحت أضرب ثناياه بمخصرة كانت في يدي، وأنا أردد:

ليت أشياخي ببدر	جزع الخزرج من
لأهلوا واستهلوا	ثم قالوا يا يزيد لا
لعبت هاشم	خبر جاء ولا وحي

قامت حينها زينب، وقالت: (أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء، فأصبحنا نُساق كما تُساق الأُسارى أنَّ بنا على الله هواناً وبك عليه كرامة، وإنَّ ذلك لعِظَمِ خَطَرِكَ عنده، فشمَخْتَ بأنفِكَ، ونظرت في عطفِك،جذلان مسروراً، حين رأيت الدنيا لك مستوسقة، والأمور متَّسقة، وحين صفا لك ملكنا وسلطاننا، فمهلاً مهلاً، أنسيت قول الله تعالى: ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمًا وَلَهْمُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾.. أمِن العدل يا ابن الطلقاء، تخديرك حرائرك وإماءك، وسوقك بنات رسول الله سبايا.. فوالله ما فريت إلا جلدك، ولا حززت الا لحمك، ولتردنَّ على رسول الله ﷺ بما تحمَّلت من سفك دماء ذريته وانتهكت من حرمته في عترته ولحمته، حيث يجمع الله شملهم، ويلمَّ شعثهم، ويأخذ بحقّهم﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾، وحسبك بالله حاكماً، وبمحمَّد ﷺ خصيماً، وبجبرئيل ظهيراً، وسيعلم من سوّل لك ومكَّنَك من رقاب المسلمين بئس للظالمين بدلاً وأيّكم شرٌ مكاناً، وأضعف جنداً. ولئن جرَّت علي الدواهي مخاطبتك، إنّي لاستصغر قدرك واستعظم تقريعك،

واستكثر توبيخك، لكن العيون عبرى، والصدور حـرى. ألا فـالعجب كل العجب، لقتل حـزب اللـه النجبـاء، بحـزب الشـيطان الطلقـاء، فهذه الأيدي تَنْطُفُ من دمائنـا، والأفـواه تتحلّب من لحومنـا وتلـك الجثث الطواهر الزواكي تنتابها العواسل، وتعفرها أمّهات الفراعل ولئن اتّخذتنا مغنما، لتجدنَّا وشيكاً مغرماً، حين لا تجد الا ما قـدَّمت يداك وما ربُّك بظلام للعبيد، والى الله المشتكى وعليه المعول)

ثم خاطبتني بذلك الشعار الـذي راح الثـوار يرددونـه في كـل حين: (فكد كيدك، واسع سعيك، وناصـب جُهـدَك، فواللـه لا تمحـو ذكرنا، ولا تميت وحينا، ولا يرحض عنك عارها، وهـل رأيـك الا فنـد وأيَّامك الا عدد، وجمعك الا بدد، يـوم ينـادي المنـادي ألا لعنـة اللـه على الظالمين)

لست أدري كيف شعرت بشجاعة عظيمة، وأنا أسمع حــديث زينب ومن معها من الزينبيات.. وخاصة وأنـا أمـام يزيـد ومن معـه من زبانيته..

تركنا يزيدا يرسل الـويلات على نفسـه، ولم نبتعـد قليلا حـتى سمعنا صـوتا لا يقـل عمـا قبلـه نكـارة، إلا أن فيـه سـيما أصـوات الخطباء من تمديد الصوت وتمطيطه، فسألت صاحبي عن مصـدر الصوت، فقال: هذا الحجاج.

قلت: ذلـك الخطيب الألمعي.. لقـد خطب في أهـل العـراق خطبة سالت لها وديان البلاغة.

قال: وفاضت بها بحار الاستبداد..

قلت: كيف هذا.. لقد كان الحجاج يقتل، ويسرف في القتـل.. ولكن الرعية قد تحتاج أحيانا إلى من يردعها.. لقد قال المؤرخـون عنه:(كان يغضب غضب الملوك، وكان يتشبه بزياد بن أبيه، وكـان زياد يتشبه بعمر)

قال: أراكم تعطون للظلمـة الأغلال الـتي يقيـدونكم بهـا.. ولا تكتفون بذلك، بل تعطونهم السياط التي تلهب ظهوركم..

قلت: عرفت نموذج يزيد، وتمثيله للحاكم المستبد الذي يأخذ الأمر من أهله، ثم يسلط عليهم سياطه، فمن يمثل الحجاج؟

قال: الحجاج هو سوط الحاكم الظالم المستبد..

قلت: صدقت في هذا.. لقد نقل المؤرخون عظم الولاء الذي كان يحمله الحجاج لبني أمية إلى درجة وصموه فيهـا بالذلـة، وقـد كتب مرة إلى عبـد الملـك بن مـروان: إن خليفـة اللـه في أرضـه، أكرم من رسوله إليهم.

وكان يقول: ويحكم، أخليفة أحدكم في أهلـه أكـرم عليـه، أم رسوله إليهم؟ يشـير بـذلك إلى أن عبـد الملـك بن مـروان، أكـرم على الله من النبي ﷺ.

وبلغـه أن عبـد الملـك، عطس يومـاً، فشـمته أصـحابه، فـرد عليهم، ودعا لهم، فكتب إليـه: (بلغـني مـا كـان من عطـاس أمـير

المؤمنين، ومن تشميت أصحابه لـه، ورده عليهم، فيـا ليتـني كنت معهم، فأفوز فوزاً عظيماً)

بينما نحن كذلك إذا بالحجاج يصيح بصوت قد امتلأ قبحـا: ادن مني يا تلميذ السلام.

صحت رعبا: ما تريد مني، ألم يكف من قتلت من هذه الأمـة حتى تريد أن تلحقني بهم؟

قـال: ادن مـني لأعرفـك بنفسـي.. ألسـت تبحث عن معـادن الاستبداد.. لقد كنت أحدهم، بل سـيدا من سـاداتهم.. لقـد جمعت كـل البشـاعة، وكـل الدمامـة،.. لقـد كنت قاسـي القلب، شـرس الأخلاق، غليـظ الطبـع.. حاصـرت مكـة، وهـدمت الكعبـة، ورميتهـا بـالمنجنيق، والنفـط، والنـار، وأبحت الحـرم، وسـفكت الـدماء، وهتكت الأعراض، وقتلت في مدة ولايتي ألف ألف وسـتمائة ألـف مسلم، ومات في سجوني ثمانية عشر ألف إنسان.

كنت لا أرجو عفو الله، ولا أتوقع خيره، وكأنه قد ضـرب بيـني وبين الرحمة والرأفة، بسور من فظاظة، وغلاظة، وقسوة.

أنتم تسمون التلذذ بالتعذيب سادية، كذلك كنت أنـا.. وكـذلك هم ذريتي الذي ورثوا أخلاقي وطباعي، لقد كنت أتفنن في ابتكـار أنواع العذاب، وأتلـذذ بمشـاهدة ضـحاياي عنـد تعـذيبهم، بـل كنت أعذب بعضهم، وأقتلهم بيدي.

لقد جيء لي بابن القرية، فأمرت به، فأمسـكه رجـال أربعـة، حتى لا يسـتطيع حراكـاً، ثم وضـعت حربـة في ثندوءتـه، ودفعتهـا، حتى خالطت جوفه، ثم خضخضها، وأخرجتها، فأتبعهـا دم أسـود، لا زلت أذكـر مـا قلت حينهـا، لقـد قلت: هكـذا تشـخب أوداج الإبـل، وفحص ابن القريـة برجلـه، وشـخص ببصـره، وجعلت أنظـر إليـه بمتعة لا تدانيها متعة.

وأمرت مرة بأحد أسراي، فشد عليـه القصـب الفارسـي، ثم سل عنه، حتى شرح بدنه، ثم نضح بالخل والملح، حتى مات.

وجيء إلي بمحمـد بن سـعد بن أبي وقـاص أسـيراً، فظللت

أضرب رأسه بعصا كانت في يدي، حتى أدميته، ثم أطمعته في أن أطلقه، وأطرقت ملياً، كأني أفكر، ثم قلت لرجل من أهل الشـام: اضرب لي مفرق رأسه، فضربه، فمال نصفه هـا هنـا، ونصـفه هـا هنا(1).

وحبست إبراهيم بن يزيد التيمي الزاهد، ومنعت عنه الطعام، ثم أرسلت عليه الكلاب تنهشه، حتى مات، ولما مات، رميت بجثته في الوكر، ولم يجرأ أحد أن يدفنه، حتى مزقته الكلاب.

وفي معركة الزاوية، إحدى معـاركي مـع ابن الأشـعث، قتلت أحد عشر ألفاً، بالخديعة والمكر، فقد أمر منـادي، فصـاح: لا أمـان لفلان بن فلان، وسـمى رجـالاً، فقـال العامـة: قـد آمن النـاس، وحضروا، فأمرت بهم فقتلوا (2).

سـكت قليلا، وكأنـه يسـتعيد ذكرياتـه، ثم قـال: ولمـا دخلت البصرة، دخلت الجامع، وجلست على المنبر، وأمـرت جنـدي بأخـذ الأبـواب، وقلت لهم: إذا رأيتمـوني وضـعت عمـامتي عن رأسـي، فضـعوا سـيوفكم، ثم بـدأت خطبـتي، فحصـبني النـاس، فخلعت عمـامتي، ووضـعتها على ركبـتي، فجعلت السـيوف تـبري الرقـاب وسالت الدماء إلى أبواب المسجد، وإلى السكك(3).

كان العذاب جزءا من متعي لا تعوضه أي متعة، حبست مـرة مالك بن أسماء بن خارجة، وضيقت عليـه كـل أحوالـه، حـتى كـان يشاب له الماء الذي كان يشربه، بالرماد والملح.

ولكني لم أكن وحدي، لقد كـانت لي بطانـة تـزين لي مـا أنـا فيه، بل تعينني عليه، قبضت على يزيد بن المهلب وعذبتـه، فكـان يزيـد يصـبر على العـذاب، فقيـل لي: إنـه إن رمي بنشـابة، فثبت أصـلها في سـاقه، فلا يمسـها شـيء إلا صـاح، فـأمرت أن يعـذب بذلك، وأن يدهق ساقه، فلما فعل به ذلك، صاح.

1() الطبري 6 / 379 والإمامة والسياسة 2 / 41 و 42.

2() ابن الأثير 4 / 469..

3() الإمامة والسياسة 2 / 25 و 26.

ثم سكت قليلا، ثم قال: إني - والله - لا أعلم على وجه الأرض خلقاً هو أجرأ على دم مني(1)، لقد كان لي في القتل وسفك الدماء غرائب لم يسمع بمثلها، أنا أحد أربعة في الإسلام، قتل كل واحد منهم أكثر من ألف ألف رجل.

وبعد وفاتي، خلفت في حبسي ثمانين ألفاً، حبسوا بغير جرم، منهم خمسون ألف رجل، وثلاثون ألف امرأة.. كنت أحبس الرجال والنساء في موضع واحد، ولم يكن لحبسي ستر يستر الناس من الشمس في الصيف ولا من المطر والبرد في الشتاء (2)، وربما كان الرجل يستتر بيده من الشمس، فيرميه حرسي بالحجارة، وكان أكثرهم مقرنين بالسلاسل، وكانوا يسقون الزعاف، ويطعمون الشعير المخلوط بالرماد، وكان المسجونون في سجني يقرنون بالسلاسل، فإذا قاموا، قاموا معاً، وإذا قعدوا قعدوا معاً.

وقد أحصي من قتلتهم، سوى من قتلوا في حروبي، فوجدوا مائة وعشرين ألفاً، ووجد في حبسي مائة ألف وأربعة عشر ألف رجل، وعشرون ألف امرأة، منهم عشرة آلاف امرأة مخدرة.

قلت: لم تذكر كل هذا عن نفسك؟.. أتراك تفتخر به؟

قال: بل أتعذب به.. إن هذه الذكريات المريرة التي تطاردني في هذه الوحدة والظلمة والرعب لا أجد لها متنفسا إلا مع من يزور هذه الأوكار التي جعلها الله عبرة للمعتبرين.

قلت: ولكنك مع ذلك أحسنت في أشياء كثيرة.. فلا تحزن..

قال: بعدا لك.. لو عاد الأمر إلي لعذبتك في سجوني بما تراني أعذب به.

قلت: كيف تقول هذا.. وأنا أثني عليك، وأحاول أن أرفع عنك بعض الذي أصابك من ألم.

قال: كف عنك ذلك.. فلم أكن أصلح لشيء.. ألم تقرأ عن

---

(1) العقد الفريد 2 / 176.

(2) مروج الذهب 2 / 128.

سياستي المالية المخربة.

قلت: وما فعلت مع الأموال.. هل سجنتها هي الأخرى؟

قال: بل قتلتها.. وعذبتها.. وحـرمت المسـلمين من بركاتهـا.. لقد كانت السياسة التي اتبعتها خلال مدة حكمي من أهم الأسباب التي أدت إلى سقوط دولة بـني مـروان، وخـربت العـراق تخريبـاً تاماً.

قلت: فما فعلت؟

قال: لقد فرضت على أهـل الإسـلام الـذين سـكنوا الأمصـار، ممن كان أصلهم من السواد، من أهل الذمة فأسلم، بـالعراق، أن أردهم إلى قراهم ورساتيقهم، ووضعت الجزيـة على رقـابهم على نحو ما كانت تؤخذ منهم على كفرهم(1).

قلت: ويلك.. أتنفر الناس من الدين؟

قال: وما يهمني الـدين، لقـد كـانت تهمـني الأمـوال كمـا تهم سلاطينكم، لقد كتب عمالي إلي، بأن الخراج قد انكسر، وأن أهـل الذمة قد أسلموا، ولحقوا بالأمصـار، فـأمرت بـإخراج أهـل القـرى إلى قراهم، وأن تؤخذ منهم الجزية، على نحو ما كانت تؤخـذ منهم وهم كفار(2).

فـاجتمعت إلى ابن الأشـعث، أهـل الكوفـة، وأهـل البصـرة، والقراء، وأهل الثغور، والمسالح، وتضافروا على حربي، وكـان من جملتهم كتيبة تضم حملة القرآن، وتسمى كتيبة القراء.

ولما ثار أهل العراق علي، واحتشدوا لحربي، استنجدت بعبـد الملك، فأمـدني بجنـد من أهـل الشـام، فـأنزلتهم في بيـوت أهـل الكوفة، فأنا أول من أنزل الجند في بيوت الناس(3).

---

(1) وفيات الأعيان 6 / 311.

(2) ابن الأثير 4 / 464 و 5 / 101.

(3) ابن الأثير 4 / 482.

ولما قتل ابن الأشعث، قلت: الآن فرغت لأهل السواد، فعمدت إلى رؤسائهم، وأهل بيوتاتهم من الدهاقين، فقتلتهم صبراً، وجعلت كلما قتلت من الدهاقين رجلاً، آخذ أمواله، وأضر بمن بقي منهم إضراراً شديداً، فخربت الأرض(1).

وانبثقت في زمني بثوق، أغرقت الأراضي، فلم أعن بسدها، مضارة للدهاقين، لأني كنت أتهمهم بممالأة ابن الأشعث حين خرج علي.

ومما يدلك على سوء تدبيري أنه لما خرب السواد من جراء إفراطي في الظلم وفي سوء الجباية، تخيلت أن الانقطاع عن الزراعة، إنما كان لقلة الماشية التي تعين الفلاحين على حرث الأرض، فأصدرت أمرا بتحريم ذبح البقر، وقد قال الشاعر في حينها:

شكونا إليه خراب ... فحرّم فينا لحوم

فكنّا كمن قال من ... أريها السها

قلت: فما كان عاقبة هذه السياسة؟

قال: لقد كانت عاقبة هذه السياسة أن جباية سواد العراق، وكانت على عهد الخليفة عمر مائة ألف ألف وثمانية وعشرين ألف ألف درهم، نزلت في عهدي إلى ثمانية عشر ألف ألف درهم فقط، ثم ارتفعت في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى مائة ألف ألف وأربعة وعشرين ألف ألف درهم(2).

لقد قال عمر بن عبد العزيز حين جيء له بهذه الثروة الطائلة التي عجزت عن مثلها: (لعن الله الحجاج، فإنه ما كان يصلح للدنيا، ولا للآخرة)(3)

قلت: ويلك يا حجاج.. ما أعظم شبهك بمن استبد من

---

(1) أدب الكتاب للصولي 2 / 220..

(2) أحسن التقاسيم للمقدسي 133.

(3) معجم البلدان 3 / 178.

قومي.. لقد كانت أراضينا تدر علينا من الأغلال ما يشبعنا، ويشبع معنا أمما من الناس، فرحنا نتلاعب بها، فأمتناها، وأمتنا أنفسنا تبعا لها.

قال: كلهم مثلي.. ولكنهم لا يعلمون.. ولو طال بك المقام هنا، فسترانا جميعا مغلولين بأغلال واحدة.. فربك لا يفرق بين الحجاج، وأذناب الحجاج.

قلت: الويل لك يا حجاج.. ما فعلت بنفسك؟

قال: والويل الأكبر لمن ولاني.

قلت: لقد ولاك عبد الملك بن مراوان، وقد ذكرت عنه محاسن لم تذكر لك.

قال: لو لم يكن في سيئاته إلا أنا لكفاه ذلك.. لقد كان هو الذي سلطني على العراق، هو الملوم الأول على ذلك.

قلت: لعله لم يكن مطلعا على حقيقة تصرفاتك؟

قال: وكيف يلي أمر المسلمين إن لم يطلع على ما يفعله عمالهم.. لقد كان عبد الملك مطلعاً تمام الاطلاع على سياستي المخربة، وقد كتب إليه مرة يقول: (إن رأيك الذي يسول لك أن الناس عبيد العصا، هو الذي أخرج رجالات العرب إلى الوثوب عليك، وإذا أحرجت العامة بعنف السياسة، كانوا أوشك وثوباً عليك عند الفرصة، ثم لا يلتفتون إلى ضلال الداعي، ولا هداه، إذا رجوا بذلك إدراك الثأر منك، وقد ولي العراق قبلك ساسة، وهم يومئذ أحمى أنوفاً، وأقرب من عمياء الجاهلية، وكانوا عليهم أصلح منك عليهم)[1]

قلت: ومع ذلك لم يعزلك؟

قال: كان في إمكانه أن يفعل ذلك.. ولكنه لم يفعل.. وليته فعل.. لقد سألني مرة عن نفسي، فذكرت له أني (حقود،

---

[1] العقد الفريد 5 / 45.

حسود، كنود) فقال لي: ما في إبليس شر من هذه الخلال (1).

قلت: واكتفى بذلك.

قال: بل فرح به.. بل كتب إلي مرة يقول :(إنك عبـد، طمت بك الأمور، فغلـوت فيهـا، حـتى عـدوت طـورك، وجـاوزت قـدرك، أنسـيت حـال آبائـك في اللـؤم، والـدناءة في المـروءة والخلـق؟ فعليك لعنة الله من عبد أخفش العينين، أصـك الـرجلين، ممسـوح الجاعرتين)(2)

ومما يدلك على علمه بي ورضاه عن تصرفاتي أنه لمـا وليت الحـرمين حظي عنـده إبـراهيم بن محمـد بن طلحـة، فلمـا أردت الرجوع إلى الشام إلى عبد الملك بن مـروان، وفـد معي إبـراهيم بن محمـد بن طلحــة وقلت: أتيتــك برجــل الحجــاز في الشــرف والأبوة والفضل والمروءة يا أمير المؤمـنين، مـع مـا هـو عليـه من حسـن الطاعـة وجميـل المناصـحة، واللـه لم يكن في الحجـاز لـه نظير، فبالله عليك يا أمير المؤمـنين، إلا فعلت معـه من الخـير مـا هو مستحقه؟ فقال عبـد الملـك: من هـو يـا أبـا محمـد؟ قـال لـه: إبراهيم بن محمد بن طلحة، قال: يـا أبـا محمـد لقـد ذكرتنـا بحـق واجب ائذن له في الدخول.

فلما دخل على عبد الملك أمر بجلوسه في صدر المجلس ثم قال: إن أبا محمد الحجاج ذكـر لنـا مـا نعرفـه من كمـال مروءتـك وحسن نصيحتك، فلا تـدع في صـدرك حاجـة إلا أعلمتنـا بهـا حـتى نقضيها لك ولا نضيع شكر أبي محمد الحجاج فيك.

قـال إبـراهيم: إن الحاجـة الـتي نبغي بهـا وجـه اللـه تعـالى والتقرب إلى النبي ﷺ في القيامـة نصـيحة أمـير المؤمـنين. قـال: قل! قال: لا أقولها وبيني وبينك ثالث، قـال: ولا صـديقك الحجـاج؟ قال: لا، قال: قم، فقام خجلاً وهـو لا يعـرف أين تطـأ رجلـه، فلمـا مضى قال له: هات نصـيحتك، فقـال إبـراهيم: يـا أمـير المؤمـنين، وليت الحجــاج الحــرمين الشــريفين وفيهمــا من تعــرف من أولاد

(1) نهاية الأرب 3 / 267.

(2) ابن الأثير 4 / 386.

المهاجرين والأنصار وصحبة رسول الله ﷺ مع ما تعلمه من ظلمه وفسقه وجوره وبعده من الحق وقربه إلى الباطل، يسومهم الخسف ويطؤهم بالعسف، فليت شعري أي جواب أعددته لرسول الله ﷺ، إذا سألك الله في عرصات القيامة عن ذلك؟ فبالله عليك يا أمير المؤمنين، إلا عزلته وادخرتها قربة إلى الله تعالى.

فقال عبد الملك: لقد ظن الحجاج الخير بغير أهله، ثم قال: يا إبراهيم! قم.

فقمت على أنحس حال وخرجت من المجلس، وقد اسودت الدنيا في وجهي فتبعني حاجبه وقبض على زندي وجلس بي في الدهليز، ثم دعا عبد الملك بالحجاج. فدخل فمكث طويلاً فما شككت إلا أنهما يتشاوران في قتلي. ثم دعاني فقمت ودخلت فوافاني الحجاج خارجاً فعانقني، وقال: جزاك الله عني خيراً في هذه النصيحة، أما والله لئن عشت لأرفعن قدرك.

وتكرني وخرج ودخلت وأنا أقول: يهزأ بي، وهو معذور، فدخلت على عبد الملك فأجلسني مجلسي الأول ثم قال لي: قد علمت صدقك وقد عزلته عن الحرمين ووليته العراق وأعلمته أنك استقللت له الحجاز واستدعيت له العراق، وأنك تطلب له الزيادة في الأعمال وهو يظن أنك السبب في توليته العراق، وقد تهلل وجهه فرحاً لذلك، فسر معه أينما توجه يولك خيراً، ولا تقطع نصيحتك عنا.

قلت: لقد أحسن.. فقد أخرجك من الحرم.

قال: لقد عزلني عن الحرم ليوليني العراق.. وأي فرق بين العراق والحرم.. أليست الرعية كلها واحدة؟

ولذلك كانت الرعية تشركنا في دعواتها علينا، وقد لقيت أعرابياً لا يعرفني، فسألته قائلا: كيف سيرة أميركم الحجاج؟ فقال: غشوم ظلوم، لا حياه الله، ولا بياه، فقلت له: لو شكوتموه إلى أمير المؤمنين، فقال الأعرابي: هو أظلم منه وأغشم، عليه

لعنة الله [1].

قلت: أعجب من جرأتك وجرأة من ولوك.. كيف سمحتم لأنفسكم أن تتولوا أمر الأمة، وفيها تلك الحفنة المباركة من أهل البيت الطاهرين، ومن الصحابة المجتبين.

قال: لا أكتمك.. لقد كنت عظيم الحقد على النبي وعلى أصحابه، وعلى آل البيت.. لقد كان ولائي واحدا للخليفة.

قلت: لقد نبهني حديثك هذا إلى ناحية مهمة أرى بعض قومي يفعلها، ولم أكن أعلم لها سببا.

قال: تقصد ثناءهم علينا وعلى أمثالنا.

قلت: أجل.. فقد كتبوا الكتب الكثيرة يثنون عليكم.

قال: هم لا يثنون علينا، بل يعطون الذرائع للمستبدين ليملكوا رقابكم.. أما الصالحون، فقد كانوا يبالغون في ذمنا، لأن حرصهم على جمال الإسلام وعلى حقائق الإسلام أعظم من حرصهم على التاريخ، وعلى أهل التاريخ.

قلت: وما قال فيك السلف؟

قال: لقد قال عمر بن عبد العزيز: لعن الله الحجاج، فإنه ما كان يصلح للدنيا ولا للآخرة، وقال في :(لو جاءت كل أمة بمنافقيها، وجئنا بالحجاج، لفضلناهم)، وقيل للشعبي: أكان الحجاج مؤمناً؟ قال :(نعم، بالطاغوت، كافراً بالله)

وقيل لعبد الله بن المبارك: أبو مسلم كان خيراً أو الحجاج؟ فقال: لا أقول إن أبا مسلم كان خيراً من أحد، ولكن الحجاج كان شراً منه.

وكان الحسن البصري، يسميني: فاسق ثقيف، وقال القاسم بن محمد بن أبي بكر: كان الحجاج ينقض عرى الإسلام، عروة، عروة.

---

[1] الملح والنوادر للحصري 15.

***

بينما نحن كـذلك إذ تـنزلت مـرآة من السـماء مثـل المـرائي السابقة، وظهر فيها ما ظهـر فيهـا من القصـور والأنهـار .. وأنـواع الثمار والأزهار.. وظهر فيها شـباب ممتلـئين قـوة وصـحة وعافيـة وجمالا.

سـألت صـاحبي عنهم، فقـال لي: هـؤلاء هم الصـخور الـتي تكسرت عليها سفينة الحجاج.. وهم الذين قـال فيهم رسـول اللـه ﷺ : (ألا لا يمنعن رجلا مهابة الناس أن يتكلم بالحق إذا علمـه.. ألا إن أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر)(1)

وهم الذين عاشوا يحيون قوله تعـالى:﴿وَلَا تَرْكَنُـوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُـــوا فَتَمَسَّـــكُمُ النَّارُ وَمَـــا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَـــاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ [هود: 113]، وقولـه ﷺ : (لا يحقـرن أحـدكم نفسـه أن يرى أمر الله تعالى فيه مقال، فلا يقـول : يـا رب خشـيت النـاس، فيقول : فاياي كنت أحق أن تخشى)(2)

قلت: لا أحســب أن هنــاك من اســتطاع أن يقــف في وجــه الحجاج.

قال: وهل نسيت سعيد بن جبير؟

قلت: أجـل.. لقـد ذكرتـني بحديثـه .. لقـد كـان حديثـه شـيقا جميلا.. فهلا حدثتني عنه.

قال: وكيف أحدثك عنه، والحجاج هنا..

قلت: وهل يمكن للحجاج في هذه المآسي أن يتذكر الحادثة؟

قال: وهـل يمكن أن ينسـاها، وهـو يعيشـها في كـل لحظـة.. ويتألم لها أعظم الألم.. إنه في كل حين يظهر فيه هـؤلاء الشـباب المنورين بنور الإيمان يستعيد ذكرياته مع سعيد، ويخاطبه وهو في غاية الألم والأسف والندم.

---

1) رواه أحمد والترمذي والحاكم.. وغيرهم.

2) رواه أحمد وابن ماجة.

فجأة سمعت الحجاج بصوته المزعج يردد بينه وبين نفسه كالمجنون: ويلي منك يا سعيد بن جبير.. ألا تكف عن تعذيبي؟.. لقد قضيت حياتي كلها آلاما بسببك.. بل ظلت صورتك تعذبني إلى آخر لحظة من حياتي.

أذكر جيدا حين أتاني زبانيتي بك، فسألتك عن اسمك، فقلت لي: سعيد بن جبير.

فرددت عليك باستكبار واستعلاء: بل أنت شقي بن كسير.

فابتسمت ابتسامة قاتلة، وقلت: بل كانت أمي أعلم باسمي منك.

حينها انتفخت أوداجي، وصحت غاضبا: شقيت أمك، وشقيت أنت.

فرددت علي بكل برودة: الغيب يعلمه غيرك.

حينها تصورت أنني أهنت أعظم إهانة، فصحت فيك: لأبدلنك بالدنيا ناراً تلظى.

لكنك لم تأبه لتهديدي، وقلت: لوعلمت أن ذلك بيدك لاتخذتك إلها.

رحت بعدها أمتحنك بما كنت أمتحن به من أشاء تعذيبهم فسألتك:: ما قولك في محمد؟

فأجبتني: نبي الرحمة، وإمام الهدى.

فسألتك عن خصمي اللدود الإمام علي، وقلت: فما قولك في «علي) أهو في الجنة أم هو في النار؟

فأجبتني: لو دخلتها، وعرفت من فيها عرفت أهلها، فما سؤالك عن غيب حفظ الحجاب؟!

فسألتك: فما قولك في الخلفاء؟

فأجبتني: لست عليهم بوكيل كل امرئ بما كسب رهين.

فسألتك: أشتمهم أم أمدحهم؟

فأجبتني: لا أقول ما لا أعلم إنما استحفظت أمر نفسي.

فسألتك: فلأيهم أعجب إليك؟

فأجبتني: أرضاهم لخالقي.

فسألتك: فأيهم أرضى للخالق؟

فأجبتني: علم ذلك عند الذي يعلم سرهم ونجواهم.

فسألتك: فأي رجل أنا يوم القيامة؟

فأجبتني: أنا أهون على الله من أن يطلعني على الغيب.

فسألتك: أبيت أن تصدقني؟

فأجبتني: بل لم أرد أن أكذبك.

عندها نفذ صبري منك، فصحت فيك: ويلك يا سعيد.

فرددت بثبات: الويل لمن زحزح عن الجنة، وأدخل النار.

حينها عبثت بعصا كانت في يدي، وقلت ساخراً: اختر لنفسك يا سعيد أي قتلة تريد أن أقتلك!

فرددت علي بكل برودة: اختر أنت لنفسك، فوالله لا تقتلني قتلة إلا قتلك الله مثلها في الآخرة.

أردت أن أذلك وأهينك وأعبث بكرامتك، فقلت: أفتريد أن أعفو عنك؟

لكنك فطنت لمرادي، ورحت تحطم كبريائي، وتقول: إن كان العفو فمن الله، وأما أنت فلا براءة لك ولا عذر.

حينها ضقت ذرعا منك، ومن سهامك التي كنت تصوبها إلى قلبي، فصحت في زبانيتي: اذهبوا به فاقتلوه.

لكنك لم تأبه، بل ابتسمت .. بل رحت تضحك ساخرا مني،

فسألتك عن سر ضحكتك، فأجبتني: عجبت من جرأتـك على اللـه، وحلم الله عليك.

حينها أمرت بالنطع فبسط، وطلبت أن تقتل أمـامي، فـرحت تقول: وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفـاً مسـلماً، وما أنا من المشركين.

فصحت في زبانيتي: اصرفوه عن القبلة.

فصرفوك عنها، لكنك قلت بكل برودة: فأينما تولوا فثم وجــه الله.

فصرخ في زبانيتي: كبوه على وجهه.

فرحت تبتسـم، وتقـول: منهـا خلقنـاكم وفيهـا نعيـدكم ومنهـا نخرجكم تارة أخرى.

حينها طلبت منهم أن يذبحوك بكل برودة، فرحت تقـول: أمـا أنا فأشهد أن لا إله إلا الله وحـده لا شـريك لـه، وأن محمـد عبـده ورسوله خذها مني حتى تلقاني بها يوم القيامـة.. اللهم لا تسـلطه على أحد يقتله بعدي.

وذبحوك من الوريد الى الوريد .. وأنت تذكر الله.

هل تحسب أنـني ارتحت بعـدك.. كلا.. فقـد أمضـيت مـا بقي من أيام معدودة من عمري، وأنا أتعـذب، وأصـيح كـل حين: مـالي ولسعيد بن جبير؟

وكنت تأتيني في الكـوابيس تأخـذ بمجـامع ثـوبي، وتقـول: يـا عدو الله! فيم قتلتني؟

وهكذا بقيت تلازمني إلى يومي هذا.. فالويل لي منك..

تركنا الحجاج يوبخ نفسه ويلومها، ويشتد في لومه لها، ولم نبتعد إلا قليلا حتى سمعنا صوتا لا يقل عن صوت الحجاج نكارة وخبثا إلا أن صوت الحجاج أفصح، ولسانه أبلغ.

اقتربنا من مصدر الصوت، فوجدنا رجلا يرتدي بذلة عصرية، وقبعة إفرنجية، فتعجبت أن يكون مثل هذا اللباس في مثل هذا المحل، فإذا بالرجل، يمسك بثيابه يريد أن يمزقها، فتحول القيود بينه وبين ذلك.

تعجبت من هذا المشهد، فقلت لصاحبي: أهذا مجنون.. ما باله.. إنه يلبس لباسا حسنا في مثل هذا المحل، ثم هو لا يرضى به، بل يريد تمزيقه.

قال: إن أعظم ما يعذب به هذا المستبد هذا اللباس الذي يلبسه.

قلت: كيف ذلك؟.. لا أراه إلا لباسا عاديا.

قال: هو عادي في ظاهره.. ولكنه في حقيقته يرمز إلى أمور خطيرة قام بها هذا المستبد طيلة حياته، وهو الآن يتعذب لتذكرها[1].

قلت: من هو ـ أولا ـ حتى أعرف خبره، وأعلم علمه؟

قال: هذا رجل أراد أن يلغي باستبداده أمة من الوجود، فراح يعيث فيها أنواع الفساد.

1() أشرت بهذا إلى ما ورد في الحديث من أن من قتل نفسه بشيء في الدنيا عذب به، فقد قال ﷺ : (من قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يتوجأ بها في بطنه في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا ، ومن شرب سما فقتل نفسه فهو يتحساه في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا ، ومن تردى من جبل فقتل نفسه فهو يتردى في نار جهنم خالدا مخلددا فيها أبدا) رواه البخاري ومسلم.

وفي حديث آخر، قال ﷺ :(من قتل نفسه بشئ في الدنيا عذب به يوم القيامة) الطبراني في الكبير.

قلت: كلهم يفعل هذا.. فما وجه خصوصية هذا المستبد؟

قال: هذا المستبد لم يكتف بأموال النـاس، ولا بـدمائهم، بـل راح يستل عروق الإيمان التي ورثوها من أسلافهم.

قلت: كثير يفعل هذا.. فمن هو من بينهم؟

قـال: رأسـهم المفكـر، وأسـوتهم السـيئة، وزعيمهم الـذي لا ينازع.

قلت: أراك تحــوم حــول رجــل أعرفــه.. وتــرك وراءه من الخراب ما لا نزال نعاني منه.

قال: أجل.. هو ذلك الرجل..

قاطعتـه قـائلا بصـوت مرتقـع، وكـأني أريـد حـل لغـز: إنـه أتاتورك..

صاح الصوت الخبيث: من ينـاديني.. أنـا أتـاتورك.. أنـا خليفـة مخلص من خلفاء فرعون.. لقد نصبت نفسـي إلهـاً من دون اللـه، أشرع للأمـة كمـا أشـاء.. لفقت قانونـاً فريـداً يتكـون من القـانون السويسـري والقــانون الإيطــالي وغيرهمــا، وأكملت البــاقي من عندي.. لقد عزلت الله لأبقى وحدي.. لقد كنت أصيح بملء في :(نحن لا نريد شرعاً فيه قال وقالوا، ولكن شرعاً فيـه قلنـا وتقـول) [1]

وفي جلسـة في مجلس النـواب وقفت قـائلاً :(إن التشـريع والقضاء في أمة عصرية يجب أن يكونا عصريين مطابقين لأحـوال الزمان لا للمبادئ والتقاليد)

وقد عقب علي حينها هامان.. وزير عدلي قائلا :(إن الشـعب التركي جدير بأن يفكر بنفسـه بـدون أن يتقيـد بمـا فكـر غيـه من قبله، وقد كان كل مادة من مواد كتبنا القضائية مبدوءة بكلمة قال المقدسة، فأمـا الآن فلا يهمنـا أصـلاً مـاذا قـالوا في الماضـي، بـل

---

(1) حاضر العالم الإسلامي : 3/ 343 .

يهمنا أن نفكر نحن ونقول نحن) (1)

وعندما اعترض علي مرة أحد القانونيين بقوله :(إن هذا النظام الذي تريدون وضعه لا يوجد في أي كتاب للقانون) قلت له بكل قوة:(إن النظم ليست إلا أشياء وأمورا تكيفت ومرت من التجارب.. علي أن أنفذ ما أريد، وعليكم أن تدرجوا ما أعمل في الكتب!!)(2)

قلت: ولكن الخلافة كانت قائمة، والأمة كان فيها كثير من الخير، فكيف وصلت إلى ذلك العرش الذي جلس عليه قبلك سلاطين آل عثمان؟

قال: ذلك حديث طويل.. وتلك مؤامرة خبيثة دبرناها، ودبرها سلفنا لنميت أمة محمد.. ونميت معها السلام والإسلام.

قلت: فأخبرني عنها..

قال: ستمر على تفاصيلها في حصون المستضعفين.. ولكني سأخبرك عن بداية خبري.. فما أنا إلا حلقة في سلسلة لم يكن لها من هدف غير تحقيق الغاية التي توهموا أنهم شرفوني بتحقيقها.

قلت: فما بداية خبرك؟

قال: لقد كان أمر أمة محمد قائما ما دامت وحدتها قائمة، فرحنا نتلاعب بتلك الوحدة بصنوف التفريق..

قلت: لقد ذكرتني بقول القس سيمون :(إن الوحدة الإسلامية تجمع آمال الشعوب الإسلامية، وتساعد التملص من السيطرة الأوربية، والتبشير عامل مهم في كسر شوكة هذه الحركة، من أجل ذلك يجب أن نحوّل بالتبشير اتجاه المسلمين عن الوحدة الإسلامية)(3)

---

1) المصدر السابق : 3/ 344 ، 345 .

2) الرجل الصنم : 205 .

3() كيف هدمت الخلافة / ص 190.

قال: ومثله قال المبشر لورنس براون :(إذا اتحد المسلمون في إمبراطورية عربية، أمكن أن يصبحوا لعنةً على العالم وخطراً، أو أمكن أن يصبحوا أيضاً نعمة لـه، أمـا إذا بقـوا متفـرقين، فـإنهم يظلون حينئذ بلا وزن ولا تأثير.. يجب أن يبقى العرب والمسـلمون متفرقين، ليبقوا بلا قوة ولا تأثير)(4)

قلت: فكيف طبقوا سياسة التفريق؟

قال: تفاصيل ذلـك كثـيرة.. وسـتعرفها في حصـون الوحـدة.. ولكني سأخبرك على ما يرتبط منها بخبري..

لقد أنشأنا عصـبة ليس لهـا من هم إلا تنفيـذ خططنـا.. وبعـد صراع مرير مع الخليفة ـ وقفت فيه كل القـوى الدخيلـة والعميلـة ضده ـ انتصرنا وأقصينا عبد الحميـد عن الخلافـة بـالقوة.. واخترنـا بدلـه سـلطاناً جديـداً لم يكن يسـاوي في نظرنـا إلا أحـد البـابوات المؤقتين.. لقد رأينا حينهـا أن المنـاخ لم يتهيـأ بعـد لإلغـاء منصـب الخلافة.. فلم يكن من الحكمة أن نستعجل بإلغائها.

قلت: ومـا فعلتم مـع فكـرة الجامعـة الإسـلامية الـتي كـانت منتشرة في ذلك الحين؟

قـال: لقـد أبطلناهـا، ووضـعنا البـديل لـذلك بفكـرة القوميـة الطورانية معلنين أن حركتنا تهدف إلى تتريك الولايات العثمانيــة.. ولم نكن نقصد بـذلك إلا تهـييج العـرب الـذين سـرعان مـا تعلقـوا ببريطانيا، كعادتهم في مـد أيـديهم لأعـدائهم، ووضـعوا مسـتقبلهم في يد عميل المخابرات لورانس منادين هم أيضاً بـالثورة العربيـة والقومية العربية.

ثم أعلنا الدستور، ذلـك الصـنم الـذي جعـل دعايتنـا العريضـة أعظم الغايات، وجاء الدستور معـبراً عن أهـدافنا اللادينيـة إذ رفـع شـعارات الماسـونية، وشـدد على الحريـة الدينيـة، وعطـل عمـل المحاكم الشرعية باسم الاصلاح والتقنين، مما أتاح الفرصة لأعداء الإسلام كي يتمكنوا من العمل بكل حرية ونشاط.

---

(4) جذور البلاء : ص 202.

قلت: لا زلت تحدثني عن العصابة التي نشأت فيها.. فحـدثني عنك.

قال: عصابتي هي أنا.. وأنا هو عصابتي.. لقـد كنـا نحمـل من الإخلاص ما لو حملتموه لانتصرتم..

قلت: لا أقصد ذلك.. بل أقصد كيف وصلت أنت إلى السلطة لتنفذ الخطط التي كنتم تتكتمون عليها.

قال: عرفنا حب هذه الأمة للأبطال.. فرحنا نضرب على هـذه الأوتار.

قلت: كيف.. هل حولوك واحدا منهم؟

قال: لقد فعلوا ذلك بدقة محكمة.. لقد كانت اللعبة العالميـة تقتضـي اصـطناع بطـل تـتراجع أمامـه جيـوش الحلفـاء الجـرارة، وتعلق الأمة الإسلامية اليائسة فيه أملها الكبـير وحلمهـا المنشـود، وفي أوج عظمتـه وانتفاخـه ينقض على الرمـق البـاقي في جسـم الأمة فينهشه ويجهز عليها إلى الأبد!

وتمت صناعة البطل بنجاح باهر.. وكنت أنا البطل الموعود..

رفـع بهـا صـوته، ثم راح يحـاول تقطيـع ثيابـه.. إلا أن الأغلال كانت تحول بينه وبين ذلك.

ثم اسـتمر يقـول: وقفت أتحـدى الحلفـاء بقـوة كاذبـة تمتلئ ضعفا.. وقفت أتوعد اليونان بألقائها في البحر.

ولم يــر الحلفــاء بــداً من التفــاوض معي، وكــانت ثمــرة المفاوضات هي الاتفاقية المعروفة باتفاقية [كيرزن]

قلت: فما تنص هذه الاتفاقية؟

قال: كانت تحوي أربعة الشروط.. كل شـرط منهـا جبـل من جبال الاستبداد..

قلت: فما هي هذه الشروط؟

قال: أولها إلغاء الخلافة الإسلامية نهائياَ من تركيا.. وثانيها أن تقطع تركيا كل صلة مع الإسلام.. وثالثها أن تضمن تركيا تجميد وشل حركة جميع العناصر الإسلامية الباقية في تركيا.. ورابعها أن يستبدل الدستور العثماني القائم على الإسلام بدستور مدني بحت[1] .

قلت: فكيف تزعم أنك بطل.. وهم يملون عليك مثل هذه الشروط.

قال: لقد كانت هذه الشروط هي حلمنا الذي أسسنا لأجله كل تلك المسرحية الطويلة.

قلت: فهل وفيت بها؟

قال: خير وفاء.. ألم تقرأ ما قال المؤرخ أرمسترونج في ذلك.

قلت: فما قال؟

قال: لقد قال :(انطلق أتاتورك يكمل عمل التحطيم الشامل الذي شرع فيه وقد قرر أنه يجب عليه أن يزيل جميع الأنقاض التي تحيط بها، هو حطم فعلاً النسيج السياسي القديم، ونقل السلطنة إلى ديمقراطية، وحول الإمبراطورية إلى قطر فحسب، وجعل الدولة الدينية جمهورية عادية، إنه طرد السلطان وقطع جميع الصلات عن الإمبراطورية العثمانية، وقد بدأ الآن في تغيير عقلية الشعب بكاملها وتصوراته القديمة وعاداته ولباسه وأخلاقه وتقاليده وأساليب الحديث ومناهج الحياة المنزلية التي تربطه بالماضي)[2] .

قلت: أوصل بك الحد إلى التدخل في حياة الناس الشخصية؟

قال: لو أذنت لي.. أو أذن لي صاحبك لأخبرتك بما فعلت.. لينالك العجب.. ولترى من طبائع الاستبداد ما لم تكن تتصور.

---

1) المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام : 174.

2) الصراع بين الفكرة الغريبة والفكرة الإسلامية : 16 .

أشار إليه صاحبي بالإذن، فراح يقول ـ وكأنه يسترجع ذكريات مريرة تؤرقه ـ : في 29/10/1923 تم إعلان الجمهورية وانتخبت أول رئيس للجمهورية، واتخذت أنقرة عاصمة لي.

بعدها بفترة قصيرة في سنة 1924، وفي 16/3 أصدرت قانون توحيد التدريسات، وبموجبه أُلغي تدريس الدين وأُلحقت المدارس جميعها بوزارة المعارف، وأغلقت مدارس القرآن الكريم والدين.

قلت: لقد بدأت بالتعليم.

قال: لأصوغ العقول الجديدة الصياغة التي يريدها الشياطين الذين ارتبطت بهم.

قلت: ثم ماذا؟

قال: في 24/4 ألغيت وزارة الأوقاف والشؤون الدينية و المحاكم الشرعية، وأعدت النظر في دستور الدولة.

وفي سنة 1925، وبعد اندلاع ثورة الشيخ سعيد پيران (الپالوي)، أعلنت الأحكام العرفية في الولايات الشرقية، وتبعه قانون إقرار السكون (قانون إقرار النظام في البلاد)، وتبعه إغلاق عشرة من الصحف الصادرة باستانبول.

قلت: لا زلنا نرى الأحكام العرفية، وإغلاق الصحف الملتزمة.

قال: كل المستبدين يدينون بدين واحد.. ولست إلا واحدا منهم.. لكني أنا البطل الذي سبق الكل، ونهج نهجه الكل.

قلت: ثم ماذا فعلت؟

قال: أعدمت من تجرأ على معارضتي.. ففي 29/6 أعدمت الشيخ سعيد پيران وسبعة وأربعين من أعوانه.. وكانت بداية سنة ممارسة الإرهاب على الرعية.

وبعدها أغلقت جميع التكايا والزوايا في شرقي الأناضول..

وبعدها بدأت سيري نحو الحداثة.. نحو أن أصير أوروبيا

مظهرا كما صرت أوروبيا مخبرا.

قلت: فما فعلت؟

قال: ألغيت التقويم الرومي المستعمل، واستعملت التقويم الغريغوري الأوروبي، واستعملت الأوقات حسب الساعات الزوالية.

وفي 24/8 ظهرت بالقبعة في قسطموني.. لقد ظهرت بهذه القبعة اللعينة التي لم أعد أطيقها، والتي لا أزال أتعذب بها.. اقترب مني يا تلميذ السلام.. وانزعها من رأسي.. فإن لها من الآلام ما لا يمكن لأي خبير تعذيب أن يتصوره.

صمت قليلا، ثم قال: لا.. دعها.. لقد عذبت بها أقواما.. فدعني أتجرع المرارات التي جرعتها غيري.

قلت: ثم ماذا فعلت؟

قال: في 24/9 من تلك السنة اشترك النساء المسلمات لأول مرة في حفلة رقص في منطقة تقسيم باستانبول، وفي 8/12 تم إقرار قانون القيافة ولبس القبعة وتكشّف النساء، أي إقرار الزي الأوروبي الكامل.

وفي 14/12 تم إجبار موظفي المساجد على ارتداء الزي الأوروبي والموظفين بلبس القبعة، وتم إلغاء الألقاب كالشيخ والخليفة والمريد.

وفي سنة 1926، وفي 17/2 منه تم إلغاء الزواج الإسلامي، ووضع قانون الزواج المدني، وبموجبه: حرّم تعدد الزوجات، وأُلغي المهر المفروض على الزوج، ومنع الزوج من حق الطلاق، وأصبحت البنت حرة في اختيار الزوج من أي دين كان، والتسوية بين الذكر والأنثى في الميراث..

وفي 4/10 تم قبول القانون المدني الأوروبي - الذي هو عبارة عن الترجمة الحرفية للقانون السويسري، وترجمة القانون الإيطالي وعدّه قانون الجزاء التركي، وتم إلغاء القوانين الشرعية

كافة.

وفي 4/10 تم نصب تمثال لي في منطقة سراي بورنو باستانبول.

قلت: لم؟

قال: ألم أقل لك: إني خليفة فرعون.. وهل كان فرعون يرى غير نفسه.. ألم يبن الأهرام لأجل نفسه.. فكذلك أنا وكذلك كل مستبد لا يرى إلا نفسه.. ألستم تصرفون أموالا عريضة على صور رؤسائكم وزعمائكم؟

قلت: بلى.. نفعل ذلك وغيره.

قال: فكلهم مثلي.. فلم تفردونني باللوم.

قلت: واصل حديثك.

قال: في 1927 وفي 20/5 أمرت بإزالة كل ما يمت إلى الدولة العثمانية من لوحات وطغراء في الدوائر الرسمية، وفي 4/11 تم الاحتفال برفع الستارة عن تمثال النصر بآنقرة.

وفي سنة 1928 وفي 10/4 منها تم إخراج كلمة الله من القَسَم الذي يؤديه رجال الدولة وإخراج جملة (دين الدولة الرسمي الإسلام) وجميع التعابير والاصطلاحات الدينية من الدستور.

وفي 1/11 تم تقليص عدد موظفي المساجد من (2128) إلى (188) فقط.

وفي نفس اليوم تم إقرار الحروف اللاتينية بدلاً من العربية المستعملة، وبموجبه بيعت أطنانٌ من الوثائق والكتب القيمة بأزهد الأثمان وأطنان منها أرسلت إلى مصانع الورق.

وفي 1/11 تم إجبار الصحف ولوحات الأزقة والشوارع والمحلات على اتخاذ الحروف الجديدة.

وفي 30/12 تم غلق (90) مسجداً في استانبول.

وفي سنة 1929 وفي 1/ـ 9 منه تم رفع الدروس العربية والفارسية من المدارس ووضع الحظر على قراءة القرآن والكتب الدينية وتم تنفيذ القرار بشدة.

وفي هذه الأثناء وضع الحظر على استعمال الألقاب العثمانية كالباشا والافندي وما شابه.

وفي سنة 1931 تم فرض الآذان والإقامة بالتركية رسماً وحظرهما بالعربية. وطبع المصحف بالتركية.

وفي سنة 1933 وفي 1/2 منها حدثت ثورة في بورصة احتجاجاً على الآذان بالتركية، وفي 7/2 أصبح الآذان بالتركية نافذاً في جميع المساجد.

وفي سنة 1935 وفي 2/1 منها جعل يوم الأحد عطلة الأسبوع بدلاً من الجمعة.. وفي 1/2 تم تحويل مسجد أياصوفيا إلى متحف بعد إغلاقه مدة من الزمن، وتحويل جامع الفاتح إلى مستودع، كما صدر قرار بفرش المساجد بالكراسي واستخدام (الاورج) فيها حيث تتم تلاوة القرآن بمصاحبة الموسيقى، إلا أنه لم ينفذ.

قلت: أراك لم تكتف بدنيا الناس حتى رحت تذهب إلى أخص خصوصياتهم مما لم يسايرك فيه الغرب نفسه الذي تلهث خلفه.

قال: أجل.. ولذلك فإن الحكومة التي أسستها كانت ــ كما وصفها الأمير شكيب أرسلان ــ ليست لادينية من طراز فرنسا وإنجلترا فحسب، بل هي دولة مضادة للدين كالحكومة البلشفية في روسيا سواء بسواء، إذ أنه حتى الدول اللادينية في الغرب بثوراتها المعروفة لم تتدخل في حروف الأناجيل وزي رجال الدين وطقوسهم الخاصة وتلغي الكنائس[1] .

والحقيقة الأخطر من هذا هي أني كنت النموذج الصارخ للحكام في العالم الإسلامي.. لقد كان لأسلوبي الاستبدادي الفذ أثره في سياسات من جاء بعدي منهم، كما أنه أعطى الاستعمار

---

1) حاضر العالم الإسلامي : 3/ 336 .

الغـربي مـبرراً كافيـاً للقضـاء على الإسـلام، ففرنسـا مثلا بـررت تنصير بلاد المغرب العربي وفرنجتها بأنه لا يجب عليهـا أن تحافـظ على الإسلام أكثر من الأتراك المسلمين أنفسهم.

قلت: فهل اكتفيت بتلك المظاهر تستلها واحدة واحدة.

قـــال: لا.. لم أكتـــف.. كـــانت همـــتي أعظم.. ففي ســـنة 1940وفي 7/ 3 تم تدريس الإلحاد رسماً في معاهد القرى.. وتم بذك ما أردت من كل تلك التفاصيل والفروع.

قلت: أراك لم تترك شيئا من الإلحـاد إلا وقعت فيـه.. فكيـف سكتت رعيتك، وأنت تتدخل في أخص خصوصياتها؟

قال: إن أي قرار من القرارات التي سقتها لك، وغيرها كثـــير لم يطبق إلا بالسياط والجلادين والقتلة.. لقـد أشـعت من الـرعب ما ملأ الرعية بالسمع والطاعة الكاذبة.

لقد شكّلت محاكم زرعت الخـوف والإرهـاب في طـول البلاد وعرضها، ونصبت المشانق لعلمـاء أجلاّء، ولكـل من تُحدثـه نفسـه بالإعتراض على السلطة الحاكمة.

لقـد صـرّح جلادي الأمين الـذي حشـر معي في هـذه الأوكـار (قارا علي) لصحيفة (صون بوسـطة) في عـددها الصـادر في 3/ 3/ 1931بقوله :(علّقتُ بيدي على المشانق خمسة آلاف ومائتين وستة عشر شخصاً في اثني عشرة سنة الماضية..)

ووصفت صحيفة (جمهوريت) في عددها الصادو يوم 16/ 7/ 1930 الاعمال الجارية في شرقي الاناضول كالآتي: (لقد التجأ مـا يقرب من ألف وخمسمائة شقي الى مغارات جبل آرارات، وألقت طائراتنـا قنابـل مكثفـة عليهم، فكـانت الانفلاقـات مسـتمرة حـتى طهرت تلك البقاع من العصـاة، حيث أحـرقت جميـع القـرى الـتي التجأ اليها الاشقياء، وامتلأ وادي زيلان بجثث الـذين أبيـدوا والبـالغ عددهم ألفا وخمسمائة)

فساد جو من الذعر و الإرهـاب في أرجـاء البلاد، حـتى أصـبح الناس يخفون القرآن الكريم عن أنظار موظفي الدولة، ونشـطت

الصــحافة في نشــر الابتــذال في الأخلاق والإســتهزاء بالــدين، فانتشرت كتب الإلحاد وحلت محل كلمـات (اللـه، الـرب، الخـالق، الإسلام) كلمات (الطبيعـة، التطـور، القوميـة التركية) وغيرهـا من المصطلحات البديلة.

أما المعلمون والمدرسون فقد راحوا ـ خوفا مـني أو تصـنعا ـ يحاولون مسح كل أثر إيماني من قلوب الطلاب الصغار إذ أصبحوا يلقنونهم الفلسفة المادية وإنكار الخالق والنبوة والحشر.. وسـعت السلطة الحاكمة آنذاك بتسخير جميع إمكانياتهـا وأجهزتهـا وقوتهـا ومحاكمها إلى قطع كل الوشائج والعلاقات التي تربـط هـذه الأمـة بدينها ونزع القرآن من قلوبهم، حتى أنها قـررت جمـع المصـاحف من الناس وإتلافها، ولكن لما رأوا صـعوبة في ذلـك خططـوا لكي ينشـأ الجيـل المقبـل نشـأة بعيـدة عن الإيمـان والإسـلام فيتـولى بنفسه إفناء القرآن.

قلت: فهل ألجم الخوف رعيتك عن الثورة عليك؟

قال: إن أي قرار كنت أصدره، كان يحدث ثورة في المجتمع، وكنت أسـارع بكـل مـا أوتيت من بـأس لإخمادهـا.. بـل إني أحيانـا أسـتفز النـاس بقـراراتي ليثـوروا لأقتـل كـل من يحمـل بـذرة من الصلاح.. ليخلو الجو لهدفي الأكبر.. غرس الإلحاد.

قلت: أكان هدفك الأكبر هو غرس الإلحاد؟

قـال: أجـل.. ولم يتفطن لهـذا الهـدف.. أو بـالأخرى لم يسـع بذكاء منقطع النظير لمواجهته إلا ذلك العدو اللدود (بـديع الزمـان النورسي)

قلت: وغيره؟

قـال: كثـير منهم انشـغلوا بفـروع قـراراتي عن مقاصـدها.. فسقطوا في هـوة الاسـتفزاز.. تصـور ــ مثلا ــ أن علمـاء كثـيرين وأدباء أجلاء آثروا تركوا البلاد على لبس القبعة.. وقد حدثت حينهـا ثـورات ضـدي في أنحـاء مختلفـة من البلاد ففي سـنة 1925مثلاً حــدثت: في ســيواس في 14/11، و أرضــروم في 25/ــ 11، و مرعش في 27/ 11، و ريزة في 2/ 11 وأخمدت كلها بالقوة.

قلت: وبديع الزمان؟

قال: لقد أمرت باعتقاله، وأخـذه من صـومعته في جبـل أرك ونفيه إلى بارلا، وهي بلدة صـغيرة نائيـة، لكي يخمـد ذكـره ويقـل تأثيره ويطويه النسيان ويجف نبعه.

قلت: فهل جف نبعه؟

قال: لا.. لقـد كـان النورسـي بخلاف مـا وضـع لـه من خطـة رهيبة، لم يترك دقيقة من وقته تمضي في فراغ، بل صرف حياتـه بدقائقها في سبيل أجلّ خدمة في الوجود، خدمة القرآن والإيمان. فـانكبّ على الاستفاضـة من أنـوار القـرآن الكـريم مستعصـماً بـه حـتى أفـاض اللـه على قلبـه من نـور الآيـات الحكيمـة مـا أفـاض، فأسال منه سلسبيلاً من الرسـائل سـماها رسـائل النـور ونشـرها سراً ـ بعيداً عن أنظارنا ـ بين الرعية، فحمى بها الإيمان الـذي كنـا نسعى لاقتلاعه من الحذور.

لقد صدق بعض كتابكم[1] حين قال :(تُـرى أي مصـير رهيب كان ينتظر تركيا، لو لم يقيض الله سبحانه وتعالى لها هذا الرجـل، في وقت بدأت فيه فؤوس الحقد، ومعاول الهدم تعمل على زلزلة الإيمان وتقويض بنيانه ومسح آثاره من البلاد.. ويـتراءى لنـا طيـف الأندلس شاحباً باكيـاً وقـد انحسـر عنـه الإسـلام وغـادره الى غـير رجعة)

قلت: فحدثني عن بديع الزمان، وكيف تم له ما تم؟

قال: العلم يؤخذ من أهلـه، وقـد حـدثتك عن خـبري، فاسـأله عن خبره.

---

[1] هو أديب ابراهيم الدباغ في كتابه (سعيد النورسي رجل الإيمان في محنة الكفـر والطغيان)

تركنا أتاتورك منشغلا بثيابه وقبعته يريد تمزيقها، وسرنا قليلا، فلمحنا رجلا أشبه بتمثال.. ولكنه تمثال مقيد بقيود كثيرة.. لا يتحرك منه إلا لسانه.. وفوق هذا كانت النيران تحيط به.. فيحمر الطين الذي صنع منه تمثاله كما يحمر الفخار إن قرب من النار.

امتلأت رعبا من هذا المشهد، فسألت صاحبي عنه، فقال: هذا مثال المستبد الذي لم ينشغل في حياته إلا بصناعة تماثيله.. ولم يقدم لرعيته إلا صنم ذاته ليعبدوه، ويسجدوا له.

قلت: كلهم يفعلون هذا.. فمن هو من بينهم؟

قال: هذا الذي أراد أن يزاحم الله..

قلت: كل المستبدين أرادوا أن يزاحموا الله.

قال: أما هذا.. فصرح في الوقت الذي لمحوا.. وأبان في الوقت الذي أخفوا..

قلت: فمن هو؟.. لقد شوقتني إلى معرفته..

قال: هو أشخاص كثيرون.. لكنهم اجتمعوا في هذا.. وقد أذن له أن يحدثك.. فسله ما بدا لك.

اقتربت منه.. وقلبي يرتجف رعبا، وقلت: من أنت؟

قال: أنا لينين.. وكنت أسمى حيام غولدمان.. ولدت في أبريل سنة 1870م من أب يهودي ألماني اسمه (ايلكوسرول غولدمان).. أما أمي فيهودية اسمها (صوفيا غولدمان).. وقد عرفت فيما بعد باسم (فلاديمير ايليتش أوليانوف).

بدأ أمري بعدما أعدم أخي (الكسندر أوليانوف) في تهمة اغتيال امبراطور روسيا سنة (1881م) (اسكندر الثاني)، وقد كان لإعدامه أعمق الأثر في نفسي، مما جعلني أفكر بالإنتقام من الشعب الروسي، بل من كل البشر.. الانتقام هو بداية أمري.

سكت قليلا، واسترجع أنفاسه، ثم قال: نفيت أكثر من مـرة.. وأخيرا استقر بي المقام في سويسرا مع سبعة من اليهود.. وقمنا للتخطيط للثورة في روسيا.

أخرجنا حينها مجلـة اسـمها (إسـكرا) أي (الشـرارة)، وكـانت زوجـتي اليهوديـة المتعصـبة (تروبسـكايا) هي سـكرتيرة التحريـر، وكانت الأموال تغدق علينا من (جاكوب شيف) المليونـير اليهـودي صاحب شركة (كوهين لوب) في نيويـورك.. وكـانت هـذه الشـركة إحــدى الشــركات الكــبرى للبــارون اليهــودي (هــيريش) فولاهــا (جاكوب شيف).

لقد كنا نخطط ـ حسب النظرية الشيوعية ـ لقيام الثـورة في بريطانيا، ولأجل ذلك تسـللنا إلى المناصـب الكـبرى في بريطانيـا، ولكن الأمر تغير بعد إعلان البيان الشيوعي سنة (1848م).

وفي سـنة (1897م) عقـد هرتـزل مـؤتمر بـال للمنظمـات الصهيونية العالمية، وكان التأكيد على إقامـة الثـورة البلشـفية في روسيا، أحد بنود مقررات صهيون التي انبثقت عن هذا المؤتمر.

ثم حدث حادث جلل، لقد قمنا باغتيال الإمـبراطور الإسـكندر الثاني سنة (1881م).. فاندفع الشعب الروسي يعمـل فينـا تقـتيلا وتشـريدا، وأقـاموا لنـا مجـازر كثـيرة، فصـممنا على الانتقـام من الشعب الروسي.

قلت: فبداية الاستبداد كانت انتقاما إذن.

قـال: أجـل.. ألم تسـمع من معلمـك بـأن الصـراع يبـدأ من النفوس.

قلت: أجل.. لقد قال لي :(يستحيل على من يعيش الحروب في الداخل أن يصنع السلام في الخارج، فالخـارج صـدى الـداخل، وكتاب الباطن يقرؤه لسان الظاهر، وكل إناء بما فيه يرشح)

قـال: لقـد كنـا نمتلئ حقـدا.. أرأيت المرجـل الـتي اشـتعلت حولها النيران؟

قلت: إن النيران كلما كثرت من حولها كلما ازدادا غليانها.

قال: فقد أوقد على مراجلنا آلاف السنين.

قلت: ماذا تقصد؟.. أثورتكم بدأت منذ آلاف السنين؟

قال: أجل.. لقد بدأت مع ما كان يكيله لنا فرعون من أصناف العذاب.

قلت: لست أفهم عنك.

قال: ما بالك؟.. ألا تعقل؟

قلت: ما أعقل؟

قال: ألست تراني يهوديا.. وكل من حولي من اليهود.

قلت: لا حظت ذلك.. ولكنك لم تبق يهوديا منذ تبنيت الشيوعية.. ألم يكن كارل ماركس يردد :(الدين أفيون الشعوب)، ويردد معها: (إن الله لم يخلق الجنس البشري، بل الإنسان هو الذي خلق الله)

ألم يكن ستالين يقول: (يجب أن يكون مفهوما أن الدين خرافة، وأن فكرة الله خرافة، وأن الإلحاد مذهبنا)

ألم تسمع ما تقول برافدا السوفييتية :(نحن نؤمن بثلاثة: ماركس ولينين وستالين، ونكفر بثلاثة: الله، الدين، الملكية الخاصة)(1)

إن الشيوعيين ـ حتى يومنا هذا ــ لا يزالون يصدرون الكتب والمعاجم التي تؤكد نظرة زعمائهم السابقين، ففي سنة (1967م) صدر المعجم الفلسفي في موسكو يردد نفس العبارة (الدين أفيون الشعوب)، وقد ورد فيه :(الإسلام يبرر الظلم الإجتماعي، ويصد الناس عن الكفاح الثوري، ويدفعهم إلى انتظار بليد للسعادة في الآخرة)(2)

1() كتاب المسلمون والحرب الرابعة ص(47).

2() ماركسية القرن العشرين لجارودي، تعريب نزيه الحكيم ص(25) والكلام

قال: بلى.. لقد سمعت كل هذا.. بل قد كنت أقول :(الـدين خرافة وجهل)، وفي المؤتمر الثـالث للشـباب قلت: (إننـا لا نـؤمن بإله، ونحن نعرف كـل المعرفـة أن أربـاب الكنيسـة والإقطـاعيين والبرجوازيين لا يخاطبوننا باسم الإله الا استغلالا)

ومع ذلك، فقـد كـان موقفنـا مختلفـا مـع اليهوديـة.. فـالثورة البلشفية، التي كنا سدنتها اعتبرت اليهود شعبا مظلوما يحتـاج إلى دينه ليستعيد حقوقه المغتصبة!!

لقد كنا نتعامل مع العالم خلاف ما نتعامل به مع أنفســنا، ألم تقرأ مـا جـاء في قـرار بـني بـيرث (أبنـاء العهـد اليهوديـة) سـنة (1939م)، لقد جاء فيه بالحرف الواحد :(لقـد نشـرنا روح الثوريـة التحررية الكاذبة بين شعوب الغير، لإقنـاعهم بـالتخلي عن أديـانهم بل بالشعور بالخجل من الإعلان عن تعـاليم هـذه الأديـان، ونجحنـا في إقناع كثيرين بالإعلان جهارا عن إلحادهم الكلي وعدم الإيمــان بخالق البتة، وأغويناهم بالتفاخر بكـونهم أحفـاد القـرود، ثم قـدمنا لهم عقائـد يسـتحيل عليهم سـبر أغوارهـا الحقيقيـة; كالشـيوعية والفوضوية التي تخدم مصالحنا وأهدافنا)[1]

وقد كنت أقول :(إن الدين أفيون الشعوب، ولكن المحافظة على الدين اليهودي أمر ضروري لحيـاة الشـعب اليهـودي المختـار حتى ينالوا حقوقهم، لأنه لا يجمع بين إسرائيل إلا الدين)

قلت: لقد كان مقتـل الإمـبراطور الإسـكندر الثـاني سـببا في تغيير موقفكم من المحل الذي تبدأون منه الثورة.

قال: ليس ذلك وحده هو السبب، فهناك أسباب أخرى.. منهـا أنه كانت لنا ـ معشر يهود ـ دولة..

قلت: في فلسطين..

قال: لا.. في روسيا.. لقد كانت لنا دولة قرب بحر الخزر بين القرن التاسع والعاشـر الميلادي، إلا أن روسـيا حطمتهـا، وضـمت

للمعرب.

[1] مجلة المصور المصرية عدد (2629).

قسما كبيرا من اليهود داخل أرضها، ولذا فالعداء قديم بين اليهــود والروس.

ألا تعلم أن تسعة أعشار اليهود في العالم من يهود الخزر؟

قلت: الخزر.. أين تقع؟.. لا أعرف أن لهـذه الكلمـة محلا في خرائط الجغرافية.

قـال: أجـل.. لقـد تعمـدنا طمسـها من الخرائـط الجغرافيـة، وأبدلناها ببحر قزوين، ولم نكتف بذلك، بل مسحنا لفـظ خــزر من المعاجم الأوروبية.

قلت: لم.. أتستنكرون الوطن الذي ضمكم؟

قال: لا.. لقـد فعلنـا ذلـك لغايـة أعظم.. لقـد أردنـا أن يجهـل العالم منشأنا.. أردنا أن نثبت للعالم أننا بنو إسرائيل، وأننـا طردنـا من أرض الميعاد في فلسطين وأنه يحق لنا أن نعود إليها(1).

قلت: أهذه هي أسباب اختياركم روسيا؟

قال: ليس هذا فقط.. لقد كان عدد اليهود كثـيرا في روسـيا، إذ أن عددنا عند الثـورة بلـغ حـوالي سـبعة ملايين (6ر649ر000) وخاصة في مدينـة بطرسـبيرغ، والـتي سـميناها فيمـا بعـد (ليـنين جراد).. والتي كانت فوهة بركان الثورة.

بالإضافة إلى هذا فقر الشعب الروسي..

قلت: وما علاقة الفقر بالثورة؟

قال: الفقر هو البذرة التي تنبت الثورة.. لقد استثمرنا الكثـير من أموال اليهود الأثرياء في إنتاج الثورة.. لقد رصد اليهود الأغنياء الخمسة (شبسو وليفي وشيف ورون ومونيمر) ألف مليـون دولار للثورة، وأعدوا مليون يهودي وقودا للثورة(2).

وفي سنة (1905م) أقام يهود بطرسبيرغ ثورة على القيصر،

---

(1) انظر في هذا: التاريخ السري للعلاقات الشيوعية الصهيونية (للغادري)

(2) المخططات التلمودية اليهودية لأنور الجندي ص(83)

ومع أن الثورة فشلت، إلا أنها اضطرت القيصر أن يعطي قسطا من الحرية للناس، وأن يعفو عن كثير من المنفيين والسجناء السياسيين الذين عادوا إلى روسيا ليخططوا لثورة قادمة ناجحة، ورفعت هذه الثورة تروتسكي، الذي أصبح أحد أركان الثورة البلشفية سنة (1917م).

وقد أفادت الحرب العالمية الأولى الثورة، فقد كانت قوات القيصر المنظمة في الجيش مليونا ونصف المليون من الجنود المحترفين المدربين المخلصين للإمبراطور، بدأت هذه القوات تهلك إبان الحرب، فقد بلغت خسائر الإمبراطورية في الشهور العشر الأولى للحرب ثلاثة ملايين وثمانمائة ألف، بمعدل ثلاثمائة ألف مقاتل يموتون للشهر الواحد، مما اضطر الإمبراطورية أن تجند ثمانية عشر مليون جلهم من الفلاحين الذين لا يعتمد عليهم سياسيا، وكانوا فريسة سهلة لنا.

لقد كان هؤلاء الفلاحون عماد الثورة البلشفية فيما بعد ووقودها، ثم لقوا مصيرهم في جحيم البلشفية.

قلت: حدثني كيف قامت هذه الثورة؟

قال: دخلت روسيا، ومعي (224) ثائرا من ثوار البولشفيك، منهم (170) يهوديا.. وكان تروتسكي ينتظرنا داخل حدود روسيا مع آلاف اليهود الفارين من الجيش الروسي، بالإضافة إلى التنظيمات الطلابية التي قمنا بتنظيمها من قبل.

وفي (7) تشرين الأول سنة (1917م)، أقمنا الثورة البلشفية العظيمة، وسقطت روسيا ضحية لها.

وحينها وجهنا بيانا إلى رؤساء مقاطعات الإتحاد اليهودي الدولي، لا أزال أذكره جيدا، لقد قلنا فيه :(أيها اليهود، لقد قربت ساعة انتصارنا التام، ونحن الآن- عشية اليوم - قد تسلمنا قيادة العالم، لقد استولينا على الحكم في روسيا.. لقد كان الروس سادتنا فأصبحوا عبيدنا)(1)

---

(1) انظر: الشيوعية وليدة الصهيونية لأحمد عبد الغفور العطار، نقلا عن صحيفة فرنسا القديمة عدد (169) سنة (1920م)

وفي الأسبوع الأول للثورة أصدرنا قرارا ذا شقين بحق اليهود.. قلنا في الشق الأول :(يعتبر عداء اليهود عداء للجنس السامي يعاقب عليه قانونيا)، وقلنا في الثاني :(الاعتراف بحق اليهود في أنشاء وطن قومي في فلسطين)[1]

قلت: لقد خططتم للثورة.. ولكنها خرجت بعد ذلك من أيديكم.

قال: فمن تسلمها؟

قلت: الروس..

قال: أنت لا تقرأ التاريخ.. لقد ظللنا ندير دفتها، كما ندير دفة العالم إلى آخر لحظة.. ألم تقرأ ما كتبت الكاتبة السوفياتية (نينا اليكسيفا) سنة (1965م).. لقد كتبت تقول :(عدد اليهود في الإتحاد السوفيتي لا يزيد عن واحد في المائة، ولكنهم يمثلون ستين في المائة من هيئة التدريس في المعاهد العليا والجامعات، وثمانين في المائة من مسؤولية التوجيه العقائدي في الحزب والسياسة الخارجية، وان نائب رئيس الوزراء ورئيس المجلس الاقتصادي في السوفيات يهودي)[2]

وقد نشرت اللوموند الفرنسية في (20) إبريل (1971م) تقول :(إن القيادة الإستراتيجية للقيادة المسلحة السوفياتية في أيدي اليهود)

قلت: كيف تقول هذا؟.. ألستم الذين أمددتم بني جلدتي بالسلام من أجل القضاء على دولتكم التي أسستموها على أنقاض المستضعفين؟

ضحك، وقال: إلى متى يستمر غباؤكم.. ألم تقرأ ما صرح به الملحق العسكري السوفياتي في باريس لمراسل جريدة معاريف الإسرائيلية في (22) يونيو (1964م).. لقد صرح يقول بالحرف

---

[1] انظر: (يا مسلمي العالم اتحدوا) (والتاريخ السري للعلاقات الشيوعية الصهيونية) ص(33) ... وقد صدر هذا القرار قبل صدور وعد بلفور -وزير خارجية بريطانيا- في (2) تشرين الثاني سنة (1917م) بأقل من عشرين يوما .

[2] أنظر كتاب الشيوعية وليدة الصهيونية (أحمد عبد الغفور العطار).

الواحد :(نحن نشارك العرب في كفاحهم الإستعمار والرجعية العربية، وما نقدمه للجمهورية العربية المتحدة من سلاح إنما هو لأغراض دفاعية، ولا يمكن أن نسمح باستعماله ضد إسرائيل، فلا تقلقوا من السياسة السوفياتية في المنطقة العربية، فهذه السياسة متممة، بل ضرورية لسلامة إسرائيل، وثقوا أن الاتحاد السوفياتي مع إسرائيل، وسيؤيدها اليوم وغدا، كما أيدها ورعاها بالأمس، وكونوا على ثقة من أننا نرعى الإشتراكية العربية، لأن في ذلك تعزيزا لمصلحة إسرائيل، مثلما هو تعزيز لمصلحتنا نحن السوفيات)[1]

قلت: لقد اعتمدتم الثورة أسلوبا للسيطرة على الحكم..

قال: لم نستعمله في الثورة البلشفية فقط.. لقد استعملناه في مناطق أخرى كثيرة من العالم..

ففي المجر (هنغاريا): قام يهودي منا اسمه (بيلاكون)، وهو محرف عن هارون كوهين، سنة (1919م) بالثوة فيها.. وقد كان عظيم الإخلاص لمبادئنا.. لقد كان يجمع الفتيات الجميلات في الشوارع العامة عاريات ويبيحهن لجنوده، وبعد أن يفجروا بهن يقتلهن ويرميهن في نهر الدانوب.

ولم تتخلص المجر من قبضته إلا بعناء.. ولكن سرعان ما عادت، لتقع سنة (1945م) في أيدينا مرة ثانية، حيث استولى عليها (راكوزي) وهو رجل منا، وقد أرسله صديقه ستالين، وبقيت المجر تحكم في الخمسينات من قبل يهود ثلاثة هم: راكوزي، وفاس، وجيرو.

وفي يوغسلافيا قام بالثورة (تيتو) التلميذ المخلص لليهودي المعروف (موسى بيجادا).

وفي رومانيا، قام بالثورة صديقتنا اليهودية الرعناء (آنابوكر).

وفي بولونيا، كان أقطاب الرحى فيها اليهود الثلاثة: مينك، مافيسكي، بورمان.

---

[1] التاريخ السري للعلاقات الشيوعية الصهيونية، للغادري ص(142).

وفي تشيكوسلوفاكيا، قام بها اليهودي (رودلف سلنسكي).

وفي العالم العربي..

قلت: في العـــالم العـــربي.. إنهم يبغضـــون اليهـــود.. ولن تستطيعوا أن يكون لكم أي دور فيه؟

ضـحك، وقـال: لقـد أشـرفنا على تنظيم وتكـوين الأحـزاب الشيوعية في العـالم العـربي فنحن قادتهـا ومخططوهـا.. أتعـرف الحزب الشيوعي في مصر؟

قلت: أعرفه.. وهو مـع كونـه حزبـا شـيوعيا إلا أن رجالـه من بني جلدتنا.

قال: بنو جلدتك أتباع أغرار مخدوعون.. لقد بدأ التنظيم سنة (1921م) في الإسكندرية على يد روسي يهـودي اسـمه (جوزيـف روزنبرغ) تصحبه ابنته (شارلوت)

وفي سـنة (1927م)، أوفـدت موسـكو ثلاثـة يهـود لتشـكيل التنظيم ومتابعتـه، ثم انتـدبت روسـيا اليهـودي المصـري (هـنري كوريل) وأمدته بـأموال طائلـة أسـس بهـا بنـك كوريـل في مصـر، وشكل الحركة الديمقراطية للتحرر الوطـني (حـدتو). ثم تشـكلت (منظمة الأسكرا) أي الشرارة، وهو نفس اسم الجريدة التي كنت أصدرها في سويسرا قبل نجاح الثورة.

لقـد شـكل هـذه المنظمـة اليهـودي (ايلي شـوارتز)، ثم غـير اسمها فيمـا بعـد إلى (نحشـم) : نحـو حـزب شـيوعي مصـري، ثم انضمت إلى (حدتو).

ومثله (منظمة الفجر الجديد)، فقد أسسها اليهوديـان يوسـف درويش وريمـــون دويـــك، ثم أصـــبح اســـمها (د.ش) الديمقراطيـــة الشعبية.

ومثلهمـا (المنظمـة الشـيوعية المصـرية) (م. ش. م)، فقـد أسسها اليهوديان أوديت وزوجها سلمون سدني.

قلت: ولكن الأحزاب الشيوعية لم تكن قاصرة على مصر.

قال: كل الأحزاب الشيوعية كانت لها علاقة طيبة بنا.. إن لم نكن نحن مؤسسيها..

فالحزب الشيوعي السوري اللبناني الذي تأسس سنة (4291م) بعد الحزب الشيوعي الفلسطيني والمصري، كان يرأسه في لبنان (جاكوب تايبر) اليهودي الروسي، وكان يساعده ثلاثة يهود روس هم: ميك، أوسكار، مولر. ثم دخل بيروت يهود ثلاثة عن طريق حيفا وكلهم من الروس، وهم عيون موسكو الثلاثة جوزيف بيرجر، الياهوبيتر، نخمان لتفينسكي. وقد كان الحزب السوري اللبناني تابعا للحزب الشيوعي اليهودي في فلسطين، ثم تبع الحزب الشيوعي الفرنسي[1].

ومثله الحزب الشيوعي الفلسيطني والأردني، فقد اهتم شيوعيو روسيا بالتنظيم الشيوعي في فلسطين، فكان الحزب الشيوعي الفلسيطني الذي تأسس سنة (1919م) أول حزب في المنطقة، وقد شكله أولا اليهودي الروسي (روزشتاين)، وأوفدت موسكو قطبين يهوديين من أقطاب الحزب الشيوعي الروسي للتنظيم في فلسطين، وهما: جاك شابيليف، رادول كارن بورغ،وكان جميع عناصر الحزب الشيوعي الفلسطيني في بداية الأمر يهودا روسيين. ثم أرسلت موسكو (فلاديمير جابو تينسكي) فنشط نشاطا ملحوظا في فلسطين، ثم انتدب (س.افربوخ) اليهودي -الملقب بأبي زيام- لتنظيم الحزب الشيوعي في البلاد العربية، وكان هذا الأخير صديقا لي في سويسرا، وأبرز الشيوعيين في فلسطين، وقد تولى رئاسة الحزب الشيوعي في فلسطين من (1924م-1929م).

وكانت عضوية الحزب الشيوعي الفلسطيني أولا، قاصرة على اليهود، ثم دخله قلة من الفلسطينيين العرب، وقد كانوا غير موثوقين لدى الأكثرية الشيوعية وغير مؤتمنين على أسرارهم.

وفي سنة (1937م) تأسست أول حركة علنية للحزب الشيوعي الفلسطيني وراء ستار نقابة عمال في حيفا سكرتيرها إميل توما. وفي الناصرة نقابة عمال سكرتيرها إميل حبيبي، وفي

---

[1] انظر: المسلمون والحرب الرابعة ص(46)

يافا سكرتيرها فؤاد نصار.

وفي سنة (1939م) أنشأ الشيوعيون عصبة التحرر الوطني، سكرتيرها اليهودي (بن فسكي)، ومساعده توفيق طـوبي، وكـانت مطالب هذه العصـبة جلاء بريطانيـا، ثم تشـكيل حكومـة مشـتركة بين اليهود والعرب.

وفي حرب (1948م) تحـول أعضـاء عصـبة التحـرر الوطـني إلى قـادة عصـابات مسـلحة، يـذبحون الشـعب الفلسـطيني. فانسحب بعض الشـباب المغـرر بهم، في حين وقـف الشـيوعيون المتحمسون يدافعون عن اليهود ويقفون بجانبهم.

قلت: إلى الآن.. وأنت تحـدثني عن قومـك وتغلغلهم في العالم.. فحدثني عن نفسك.. عن الثورة التي قمت بها.

قال: أنا هـو قـومي.. وقـومي هم أنـا.. أنسـيت أني يهـودي.. وكل يهودي يرضع مع لبان أمه لبـان القوميـة والعنصـرية والثـورة على العالم.

قلت: لم؟

قال: الانتقام.. نحن نحب دماء غيرنا عندما تسيل.

قلت: لم؟

قال: أراك لم تقرأ كتابنا المقدس..

قلت: إن الكتب المقدسة تحث على السلام والمحبة.

قال: ولكنا لا نقـرأ منهـا إلا الحـرب والثـورة والانتقـام.. نحن نحفظ على ظهـر قلب مـا ورد في سـفر حزقيـال [9 :ـ 5] من قول الرب :(اعبروا في المدينة خلفه واقتلـوا، لا تـترأف عيـونكم ولا تعفوا، أهلكوا الشيخ والشاب والعذراء والطفل والنسـاء، ولكن لا تقربوا من أي إنسان عليه السمة، وابتدئوا من قدسي)، فابتدأوا يهلكـون الرجـال والشـيوخ الموجـودين أمـام الهيكـل، وقـال لهم: (نجسوا الهيكل واملأوا ساحاته بالقتلى، ثم اخرجوا). فاندفعوا إلى المدينة وشرعوا يقتلون)

ألا تعلم أن الكتاب المقدس هو الكتاب الوحيد على وجه الأرض الذي يأمر بقتل الأطفال.. لقد جاء في سفر في يشوع [6 ـ 16]: (قال يشوع للشعب: اهتفوا، لأن الرب قد وهبكم المدينة. واجعلوا المدينة وكل ما فيها محرما للرب..أما كل غنائم الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد، فتخصص للرب وتحفظ فى خزانته. فهتف الشعب، ونفخ الكهنة في الأبواق. وكان هتاف الشعب لدى سماعهم صوت نفخ الأبواق عظيما، فانهار السور في موضعه. فاندفع الشعب نحو المدينة كل إلى وجهته، واستولوا عليها. ودمروا المدينة وقضوا بحد السيف على كل من فيها من رجال ونساء وأطفال وشيوخ حتى البقر والغنم والحمير)

وفي سفر هوشع [13 ـ 16] يقول الرب: (تجازى السامرة لأنها تمردت على إلهها. بالسيف يسقطون. تحطم أطفالهم، والحوامل تشق)

وفي سفر إشعيا [13 ـ 16] يقول الرب: (وتحطم أطفالهم أمام عيونهم وتنهب بيوتهم وتفضح نساؤهم)

قلت: وهل طبقتم هذه التعاليم على الشعوب التي حكمتموها؟

قال: كيف لا نطبق وصايا الرب.. لقد نشرنا الخراب في كل مدينة استولينا عليها.

سكت قليلا، وكأنه يستعيد ذكرياته، ثم قال: لم يشهد التاريخ في أحقابه مثيلا للمجازر التي أقمناها للمسلمين، فعند قيام الثورة البلشفية وجهت مع ستالين في (15/12/1917م) نداء للمسلمين قلنا فيه :(أيها المسلمون مساجدكم، صلواتكم، أعيادكم، تقاليدكم في أمان، قوموا وساعدوا الثورة ضد القيصرية، لقد جاءت ساعة خلاصكم)[1]

قلت: وهل صدقكم المسلمون؟.. إنهم يقرؤون قوله تعالى: لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ (المائدة: 82)، وقوله تعالى: وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ

---

[1] انظر: مجلة البلاغ الكويتية العدد (478) نوفمبر سنة (1978م).

مِلَّتَهُمْ (البقرة: 120)

قال: مشكلة المسلمين أنهم يقرؤون ولا يسمعون.. يقـرؤون الحقائق الكبرى.. ولكن سرعان ما يغفلون عنها.

لقد صدقونا ببلاهة منقطعة النظير، بل لقد تصوروا أن ساعة الخلاص قد حـانت، فهبـوا للتخلص من القيصـرية والاسـتراحة من نيرها، وإذا بهم يقعون بين أنيابنا، لنمزقهم تمزيقا.

لقد وقع حوالي (60-65) مليونـا من المسـلمين تحت وطـأة الثورة البلشفية، وهؤلاء المسلمون ينتشرون على أرض مسـاحتها أكثر من (15) مليون ميل مربع (أكثر من مساحة إفريقيا).

وبعد أن انتصرنا حصدناهم حصدا:

في تركستان الشرقية التي احتلتها الصـين سـنة (1934م) ـ بمساعدة الجيش الأحمر الروسي ـ قتلنا (ربع مليـون مسـلم) من المفكرين والعلماء والشباب.

وعندما قـامت الثـورة الصـينية سـنة (1952م) قتلت (122) ألفا من المسلمين.

وفي يوغسلافيا أباد تلميذنا المخلص تيتو بعد الحرب العالميـة من المسلمين (24) ألفا.

وفي القـرم، أبـدنا سـنة (1921م) (مائـة ألـف)، وهجرنـا (خمسين ألف) في عهد بيلاكون، وكان عدد مساجدها قبل احتلالنا لها زمن كاترينا الثانية (1554) مسجدا، وعدد سكانها (5) ملايين، فمـا زالت تهجـر وتقتـل وتنفي إلى سـيبريا حـتى بقي منهم (3) مليون وبقي من المساجد (700) مسجد.

وعندما ذهبنـا إليهـا سـنة (1920م) أغلقنـا المسـاجد، وشـننا على أهل القرم حرب التجويـع.. لقـد نشـرت الأزفسـتيا في (15) يوليو سنة (1922م) تقريرا للرفيـق (كـالينين) عن مجاعـة القـرم يقول :(بلغ عدد الذين أصابتهم محنة الجوع في ينـاير (302090)

مات منهم (14413)، وارتفع عددهم في مــارس إلى (379000) (1)

وفي سـنة (1946م) كـان قـد بقي من شـعب القـرم نصـف مليون نفاهم ستالين إلى سيبريا(2).

وفي القفقاس، بلاد الشيشـان والشـركس، نفى سـتالين إلى سيبريا وأذربيجان جميع الشـعبين: (800) ألـف من الشيشـان، و(300) ألف من شعب كارة شاي و(250) ألفا من شعب كالموك.

ولم نترك في جمهورية الشيشان كلهـا مسـجدا واحـدا.. لقـد هـدمنا المسـاجد وحولناهـا إلى اصـطبلات ودور للسـينما ومراكـز للحزب ودور للترفيه ونوادي..

أما المساجد الباقية في المناطق الأخرى، فقد أجبرناهـا على أن تدفع ضـرائب للدولـة، فمسـجد ليـنين جـراد البـاقي للسـياحة، يدفع عنه المسلمون ضريبة سنوية قيمتها (24 ألف) روبل.

وفي تركستان الغربية كان مجموع ماقتل من المسلمين فيها (6) ملايين مسـلم سـنة (1919م)، هـرب منهـا مليونـان ونصـف، وسـنة (1934م) قتلنـا مائـة ألـف مسـلم.. وفي سـنة (1937-1939م) أعدم ونفي إلى سيبريا نصف مليون مسـلم.. وفي سـنة (1934م) نفي منها 9300 ألف مسلم.. وفي سنة (1950م) قتل منها (7) آلاف مسلم.. وفي سنة (1932-1934م) مـات جوعـا 3 ملايين مسلم، أخذت محاصيلهم وقدمت إلى الصين.. وفي سـنة (1951م) اعتقـل منهم (13565) مسـلما.. وفـوق هـذا لقـد ثبت بالإحصـائيات الروسـية أن سـتالين قتـل وحـده 11مليونـا من المسلمين (3).

قلت: أرى أنكم حكمتم لتقتلوا.

1() انظر: الإسلام في وجه الزحف الأحمر لمحمد الغزالي ص(142).

2() انظر: مجلة البلاغ الكويتية العدد (478) نوفمبر سنة (1978م)

3() المسـلمون في الإتحـاد السـوفياتي لكـاتبين فرنسـيين همـا (شـانتال كلكجي، الكسندر بينيغسن) تعريب د. إحسان حقي ص(267).

قال: لا.. لم نحكم لنقتل الأجساد فقط.. بل حكمنا لنقتل الأرواح والعقول والقلوب.. لقد رأينا أنه لا يمكن أن نقيد الإنسان بقيودنا التي لا ترحم إلا بعد أن نقيد عقله ونفسه وروحه وحقيقته.

قلت: فماذا فعلتم لتحقيق ذلك؟

قال: كل الوسائل.. بدأنا بالتعليم.. فمنعناه منعا باتا في مدارس الدولة في السوفيات.. باستثناء المدارس الدينية المحضة التي تخرج الأنماط التي نريدها من العلماء.

ومع ذلك، فمنذ سنة (1945م) لم يسمح إلا بمدرسة واحدة، وهي مدرسة (ميري عرب) في بخارى التي أعيد فتحها[1].

أما المساجد، فقد كان عددها في روسيا وحدها ـ عدا مساجد بخارى وخيوه الكثيرة جدا ــ (26279) مسجدا، ولم يبق منها مفتوحا للمصلين سنة (1931م) إلا (1312) مسجدا.

وفي سنة (1964م) صدرت نشرة عن طشقند بالفرنسية تخبر أنه يوجد في كل آسيا الوسطى بما فيها قزقستان (250) مسجدا فقط.

هذا عن الصلاة والمساجد، أما الزكاة، فقد كانت فمحظورة، وأما الحج فكان مستحيلا، ثم سمح به بعد سنة (1945)، ولكن عدد من حج منذ تلك السنة حتى سنة (1977م) فكان لا يزيد على مائة شخص.

أما صيام رمضان، فلم يمنع رسميا إلا أنه يكاد يكون مستحيلا من الناحية العملية، حتى اضطر بعض المفتين أن يفتوا المسلمين بصيام ثلاثة أيام تحسب لهم عن ثلاثين يوما[2].

أما رجال الدين، فقد كان عددهم سنة (1917م) ـ فيما عدا بخارى وخيوه ــ لا يقل عن (45339).. لكنه تضاءل سنة (1955م) إلى (8052).. لأن معظمهم سحق في الثلاثينات.

---

[1] انظر: المسلمون تحت السيطرة الشيوعية، محمود شاكر، ص(64) فما بعدها.

[2] أول ومنتصف وآخر رمضان، انظر: المسلمون في الإتحاد السوفياتي ص(267) فما بعدها للمؤلفين الفرنسيين.

ولم نكتف بهذه المحاربة لكل ما يمت للإسلام بصلة، بل رحنا نروج الدعايات ضد الإسلام.. وقد أنشأنا اتحادا سميناه (إتحاد من لا اله لهم) وبعد الحرب (جمعية نشر المعلومات السياسية)، وقد كان معظم عملها محاربة الإسلام.

ففي الفرع القازاقي: نظمت الجمعية بين سنة (1946-1948م) ما يساوي (30528) محاضرة منها (23000) محاضرة ضد الإسلام.

وفي أوزبكستان: سنة (1941) نظمت الجمعية أكثر من (10) آلاف محاضرة ضد الإسلام.

وفي تركمانستان: سنة (1963م) نظمت الجمعية أكثر من (5) آلاف محاضرة ضد الإسلام.

وطبعت من الكتب بين سنة (1955-1957م) (84) كتابا في (800) ألف نسخة ضد الإسلام.

وطبعت من الكتب بين سنة (1962-1964)ـ (219) كتابا ونشرة ضد الإسلام وموجهة للمسلمين.

قلت: لقد قيض الله لكل مستبد من يقوم في وجهه، كما قام موسى عليه السلام في وجه فرعون.

قال: لقد واجهنا الكثير.. العالم كله واجهنا..حتى ماركس الأب الروحي لما تبنيناه صاح في صهره ذات مرة: (على كل حال، ما أنا متأكد منه هو أنني -أنا نفسي- لست ماركسيا)[1]

لقد وقف في وجهنا الكثير من المفكرين.. في القرن التاسع عشر وقف الفيلسوف الدنيماركي المعاصر لماركس (كير كجارد) سنة (1813-1855م) صاحب فلسفة (الصلة بين العلم والإيمان).

ووقف معه الفيلسوف الفرنسي برجسون سنة (1859م) زعيم المذهب الروحي في الفلسفة المعاصرة والفيلسوف الألماني (هيدجر) الذي ولد سنة (1889م) وصاحب فلسفة

1() الإندحار الماركسي في العالم الإسلامي ص(82)

(الوجود الزماني).

وكان يتربع قمة المواجهين لنا الفيلسوف الألماني (شيلر) (1874-1928م) الذي تقوم فلسفته على الصلة بين الفكر الديني والميتافيزيقي والعملي وبين الحياة الإجتماعية والعلمية والسياسية والإقتصادية، كما تبين فلسفته أن القيم الأخلاقية حقائق ثابتة(1)، وهو خلاف ما كنا ندعوا إليه.

ولكن أكبر من قام في وجهنا والثورة علينا وتحطيم أسطورتنا فهو أنتم المسلمون.. لقد بذلنا كل جهودنا لتستسلموا.. لكن لم تفعلوا.

قلت: وأخيرا سقطتم.. ولم تدرك أنت ذلك السقوط.

قال: لقد كنت أشم نذره.. نحن نعلم صدق وعد الله بهلاك الطغاة والمستبدين.. فلذلك كنا ننتظر في كل لحظة ذلك السقوط.

قلت: فلماذا لم تتراجعوا عن آرائكم.. وتؤسسوا لحياة صحيحة كريمة.

قال: ألا يعرف الشيطان الحق؟

قلت: بلى.. هو يعرف الله، ويعرف ما ينتظره يوم البعث الأكبر.

قال: فلم لم يترك جبروته وطغيانه؟

قلت: الحسد والكبر الذي ملأ نفسه منعه من ذلك.

قال: فقد رجعت إلى ما قال معلمك من أن كل الصراعات الخارجية منطلقة من الصراعات النفسية.

قلت: هذا صحيح.. فحدثني كيف سقطتم؟.. وكيف انهارت دولتكم ذلك الانهيار المريع.. وبتلك السرعة الخاطفة.

قال: لقد اغتنمنا فرصا كثيرة لنصعد.. لم نضيع أي فرصة،

---

(1) الفكر الإسلامي الحديث لمحمد البهي ص(351)

كما تفعلون أنتم.. لقد استفدنا من خروج روسيا منتصرة من الحرب العالمية الأولى بعد الذي عاناه الناس من ظلم القياصرة ورجال الدين.

واستفدنا من الفراغ الهائل الذي أعقب الحرب الأولى بعد أن انطلق الشعبان الأمريكي والإنجليزي إلى عصر الجاز ابتداء من سنة (1920م) ونادوا بحلول الخمر محل الدم، وسقطت القيم التي كانت تسود المجتمع قبل الحرب، وظن الناس أن الفلسفة الماركسية هي المرشح لملء الفراغ النفسي لدى جماهير الأوروبيين.

واستفدنا في الثلاثينات من استفحال أمر الفاشية والنازية، ولم يبق أمام الكاتب أو الشاب المثقف إلا الهرب إلى البلشفية، لأنها القوة الوحيدة التي يمكن أن تقف أمام البرابرة حملة الصليب المعكوف(1).

واستفدنا من الجشع الغربي لامتصاص دماء البشر.. ومن أجل إبقاء الأسعار مرتفعة كانت آلاف الأطنان من الثمار والحبوب وعشرات الألوف من الخنازير تلقى في البحر، بينما الجوع ينشب أظفاره في خناق الناس.

واستفدنا من انتصار الحلفاء في الحرب العالمية الثانية، فابتلعنا دول أوربا الشرقية.

قلت: أنا لم أسألك عن صعودكم.. وما استفدتم حتى تصلوا إليه، ولكني سألتك عن سقوطكم، وما الذي جعلكم تقعون فيه.

قال: ألا تعلم أن أسباب الصعود هي نفسها أسباب السقوط.. فلذلك بقدر ما ارتفعنا بقدر ما سقطنا.

قلت: كيف ذلك؟

قال: إن الأسباب التي أدت إلى صعودنا.. هي نفسها الأسباب التي أدت إلى سقوطنا.. لقد كنا نصعد، وفي نفس الوقت نمد قوة السقوط فينا بالمدد الكافي.

---

(1) الصنم الذي هوى ص(22)

قلت: كيف ذلك؟

قال: لقـد كـان أولئـك الشـباب والمثقفين الـذين ارتمـوا في أحضــان مبادئنــا، هم الــذين اكتشــفوا زيفهــا، فخرجــوا يائســين ساخطين.

يقــول أحــدهم مازحــا لرفيقــه معــبرا عن نفســية هــؤلاء الشــيوعيين الســاخطين :(إن المعركــة الفاصــلة ســتكون بين الشيوعيين وبين من خرجوا على الشيوعيين)[1]

وكان بيرتراند راسل ـ الفيلسـوف البريطـاني ــ أحـد القلائـل الذين أدركوا تهافت التطبيق الماركسي منذ السنة الثالثة للثــورة، فقد كتب كتابه (البلشفية بين النظرية والتطبيق) الذي ألفه سنة (1920م)، ثم أعاد طباعته دون أن يحتاج إلى تغيير كلمة واحدة.

وقــد كــان الفيلســوف الفرنســي (أندريــه جيــد) متحمســا للشيوعية ويـرى أن خلاص البشـرية من آلامهـا سـيكون في ذلـك الفردوس. وقـد كـان يقـول عن الإتحـاد السـوفيتي :(إنـه لم يكن مجرد الوطن المختار أو المثال، أو مهبط الوحي، بل كان أكثر من ذلك وأسمى، لقد خيل إلي في البداية أن أشق الأمور قد أنجـزت، فكنت على استعداد لأن أوقـع عن البشـرية المعذبـة دون قيـد ولا شــرط)[2].. ولكن مــا إن زار جيــد ســنة (1936م) روســيا حــتى تحطمت كل آماله، وعاد يائسا من الشيوعية وقـال :(هـل هنالـك دولة أخرى في العالم قد كان فيها الروح والعقل أقل حرية وأكــثر ذلة واستعبادا وجبنا منها في السوفيات)

وقــال يخــبر عن الحيــاة الخاليــة من البركــة الــتي أسســها استبدادنا :(لقد كانت الوجبة الواحدة من الطعام الذي يقــدم الي تكلــف (200-300) روبــل بينمــا لا تزيــد أجــرة العامــل عن (5) روبلات في اليوم)

ويقول:(لقد ذهبت إلى الإتحاد السـوفياتي حـتى لا أجـد فيهـا

---

[1] الصنم الذي هوى ص(032)

[2] الصنم الذي هوى ص(236)

فقراء، ولكنني وجدت أناسا يعيشون في أعشاش حقيرة كل حجرة من حجرها الصغيرة بمساحة (6 قدم2) مخصصة لأربعة أفراد)

ويقول:(لقد آن للعمال في خارج الإتحاد السوفياتي أن يعلموا أنهم خدعوا من قبل الأحزاب الشيوعية، كما خدع عمال الإتحاد السوفياتي من قبل)[1]

قلت: لم حصل ذلك؟

قال: لأنا بنينا دولتنا ـ كما يبني كل المستبدين دولهم ــ على الخداع، ولا قيام لدولة تقوم على الخداع.. ألم تسمع قوله تعالى: ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (البقرة:9)

قلت: بلى.. فمن خدعتم؟

قال: الكل.. لقد كان أول من خدعنا العمال، فقد جذبناهم ببريق المساواة، وبعد نجاح الثورة البلشفية فاتحناهم بأن المساواة مستحيلة، وأن المساواة هي تحطيم الطبقات، أي الوصول إلى الحكم).

لقد صرحت للجماهير في (6/2/1919م) قائلا :(لقد أصاب انجلز ألف مرة حين صرح بأن كل طلب للمساواة يتجاوز المناوأة لمحو الطبقات، هو تحيز سخيف عن دائرة المعقول)[2]

وصرح ستالين في تقريره إلى مؤتمر الحزب السابع عشر عام (1934م) قائلا :(نحن نستطيع أن نجد في فوارق الأجور بين الأعلى والأدنى في الإتحاد السوفيتي، وهذا ما ذهب إليه إنجلز ولينين وستالين، فهذه الفوارق كثيرا ما تزيد مثيلتها في المجتمعات الغربية أو تبلغ حدوده، فهي مرة عشرة أمثال، وهي مرات عشرون مثلا أو يزيد)[3]

[1] الصنم الذي هوى ص(236)

[2] التاريخ السري للعلاقات الشيوعية الصهيونية ص(197-198)

[3] التاريخ السري للعلاقات الشيوعية الصهيونية ص(197-198)

قلت: ألم تطبقوا المساواة التي هي شعاركم الأول الذي نعرفكم به؟

ضحك، وقال: المساواة.. كيف تنتظر منا ـ نحن اليهود، شعب الله المختار ــ أن نطبق المساواه.. نعم.. لقد أزحنا الطبقية القديمة لنؤسس على أنقاضها طبقية جديدة.. طبقية يتربع الحزب الشيوعي في قمة ةقممها.. فهو الذي يعيش، وبقية الشعب لا حياة له، وإن شئت أن تعلم التفاصيل، فاقرأ كتاب(الطبقة الحاكمة) للكاتب اليوغسلافي ميلوفان دوجلاس(1)، الرجل الثاني بعد تيتو لترى الحقائق المرة عن حقيقة التي المساواة التي خدعنا الشعوب بها.

قلت: والحرية والديمقراطية؟

قال: كلها شعارات مزخرفة.. خدعنا الكل بها.. لقد كان ماركس يرى أن ديكتاتورية البروليتاريا ضرورية في البداية لتصفية الرجعية والبرجوازية، ثم تختفي الحاجة إلى السلطة والدولة، وتسقط الدولة طبيعيا، وتدار الدولة بلا جيش ولا بوليس.. ولهذا درجت الدول الإشتراكية على تسمية نفسها الديمقراطية الشعبية.

قلت: هكذا يطلق على بلدي التي أنتمي إليها.. بل على كثير من بلدان المستضعفين.

قال: يخادعونكم بذلك.. لقد كانت الديكتاتورية والظلم تزدادان يوما بعد يوم، وكل الناس في المجتمعات الإشتراكية يعيشون داخل سجن حديدي.

فالفرد في الإتحاد السوفياتي كان محروما من جواز السفر، ومن التنقل، ولو ملك الناس حرية السفر لما بقي في روسيا إلا ثلاثة ملايين شيوعي.

لقد كان الشعب كله يعيش بين مطرقة اللجان المركزية للحزب، وبين سندان قواعده.

1() وقد نال صاحبه عقوبة السجن تسع سنوات.

لقد قسمت برلين سنة (1945م) إلى قسـمين الغـربي تحت حكم الغرب والشـرقي تحت سـيطرة الشـيوعيين، وفصـل بينهمـا بجدار، ولو اطلعت على هذا الجدار ومـا يسـلط عليـه من أضـواء; لعجبت وهلعت، هناك شبكة من الأسـلاك الكهربائيـة الـتي تصـعق كل من يمسها أو يقـترب منهـا، وكم من النـاس صـعقوا على هـذا الجــدار وهم يحــاولون الهــرب من جحيم الشــيوعية الى بــرلين الغربية.

لقد تحدثت الصـحف الغربيـة في شـهر أيلـول (1979م) عن قصــة عجيبــة، قصــة هــرب أســرتين من بــرلين الشــرقية; بقيت الأســرتان تجمــع قطعــا من محلات كثــيرة مختلفــة حــتى ركبتــا منطادين ثم خاطرتا بأنفسهما وركبتا المنطادين وطاروا إلى برلين الغربية.

وأما اللجوء السياسي للأدمغة الهاربة، ومن أنــاس من جميـع القطاعات، وعلى جميع المستويات: فنـانين ورياضـيين وصـحفيين وكتـاب، والكـل نـاقم سـاخط يتنفس الصـعداء بمجـرد فتح أقفـال الستار الحديدي الأحمر.

لقد أبادت الثورة البلشفية عشـرات الملايين من أعـدائها، ثم عـادت تصـفي جنودهـا، سـحقت ثلاثـة أربـاع قيـادات الحـزب في روسيا.. كان مجلس الشـعب سـنة (1936م) 21 شخصـا لم يبـق منهم بعد سنتين سوى خمسة والبقية أبيدوا.. وكان أعضاء اللجنــة المركزيــة ســنة (1938م) (71 شخصــا)، ولم يبــق منهم ســنة (1938) سوى (21) شخصا، وأما الباقون: ثلاثة ماتوا طبيعيا، واحد ذبح، و(36) اختفــوا في منــافي ســيبريا، و(9) قتلــوا بالرصــاص، ومارشال انتحر.

لم يكن أي إنسان يستطيع أن يتفوه بكلمة في داخل الإتحــاد السوفياتي ضد الحزب؟.. ولم يكن أي إنسان يستطيع الــدفاع عن نفسه أو توكيل محام عنه؟!.. ألم تسمع بالتجربة التشيكية؟

قلت: لم أسمع.

قـال: عنـدما حـاولت تشيكوسـلوفاكيا في (1968م) أن تـدع

الفكر الشيوعي، احتلت احتلالا عسكريا بالدبابات والطائرات خلال يوم واحد.

ونشـــرت حينهـــا أربـــع صـــحف تشيكوســـلوفاكية في عهـــد السكرتير الشيوعي (دوبشك) (103) بيانـا من ألفي كلمـة للنقـاد والديمقراطيين عرفوا فيه الحزب الشيوعي على النحو التالي: هو منظمة للسلطة لها قوة جذب كبيرة تشد إليها : 1- الأنـانيين ذوي الرغبـة في الحكم. 2- الجبنـاء الـذين لا يعـرف لجبنهم حـد. 3- أصحاب الضمائر السيئة.

وقد أجروا استفتاء لإلغاء احتكـار الحـزب الشـيوعي، فكـانت النتيجة تسعة أعشار الشعب يحبذون الإلغاء.

وقد جر الظلم الشديد الممارس على طبقات الشعب عامـة، والمثقفين خاصة إلى انتحار كثير من كتابهم المرمـوقين في سـن الشباب أمثال: (مايكو فسكي، دايسين، وباجر سسـكي) اذ انتحـر ثلاثتهم قبل سن الخامسة والثلاثين[1].

قلت: والإنتاج.. ذلك الإله الذي بعتم الله من أجله.

ضحك، وقال: تمرد علينا هو الآخـر.. لقـد أصـبح الانتـاج يقـل عاما بعد عام حتى اضـطرت روسـيا لـبيع رصـيد الـذهب من أجـل شراء القمح من الدول الرأسمالية.. لقد أصبح المـارك في بـرلين الغربية يعدل أربعة ماركات شرقية.

قلت: والعمال الذين أقمتم لهم دولتهم؟

قال: اكتشف الخداع الذي خدعناه به.. لقد أصبح العامـل في الإتحاد السـوفياتي يعيش حيـاة بائسـة أليمـة محزنـة فوقهـا حيـاة الكلاب في الغـرب.. ونتيجـة لهـذا قـل إنتـاج العامـل في الـدول الشيوعية بما يتناسب مع نوع الحياة التي كان يعيشها.. لقـد أعلن سـكرتير الحـزب الشـيوعي الرومـاني في (23/12/1966م) أن انتاج العامل الروماني يساوي (ثلث- نصف إنتاج العامـل الإيطـالي والفرنسي والألماني).

---

[1] كتاب أفيون الشعوب للعقاد ص(135)

قلت: وإلى أي ثورة لجأ إليها العامل لما اكتشف خداعكم؟

قال: هرب ــ أولا ــ إلى الخمـر لينسـى شـقاءه فقـد نشـرت التايمز اللندنية في (1/9/1977م) عن صحيفة الحـزب الشـيوعي أن معدل تناول الفرد في موسكو للكحول يوميا (13 لتر فودكا + 10ر5 لتر من الكحول المصنعة في البيوت).

ثم هرب إلى أعدائنا..

قلت: هل هربوا إلى الإسلام؟

قال: لا.. أهـل الإسـلام كـانوا لا يزالـون يلهثـون خلفنـا.. ولـو وجـدوا المثـال الطيب في أهـل الإسـلام لهربـوا إليـه.. ولكنهم لم يجدوكم إلا حجبا حالت بينهم وبين الحق.

قلت: فأين هربوا إذن؟

قال: لقد هجر العمـال بلادهم، وهـرب المفكـرون، وهـاجرت الأدمغة، ويئس الناس.. لقـد أصـبحت هوايـة العمـال والطلاب هي جمع صناديق الدخان الأمريكية الفارغـة في بيـوتهم، أو البحث عن الأعلام الأمريكية لوضعها في جيوبهم.

لقد أصبح في أعماقهم عقدة الصـناعات الغربيـة، يمكنـك أن تقدم هديـة فـاخرة لعامـل سـوفياتي، ممثلـة في سـيجارة واحـدة أمريكية، أو قلم حبر جاف غربي.

قلت: ومع ذلك.. فإن استبدادكم السياسـي والاجتمـاعي أنتج ثقافة إنسانية رفيعة.

ضحك، وقال: من قال ذلك.. إن الاسـتبداد كـل لا يتجـزأ.. ولا ينشـأ الاسـتبداد السياسـي والاجتمـاعي حـتى يسـبقه الاسـتبداد الفكري والثقافي..

لقـد أسسـنا اسـتبدادنا على الماديـة.. والماديـة لا يمكن أن تنشـئ فكـرا أو حضـارة.. لقـد كنـا نتعامـل مـع الإنسـان كآلـة من الآلات، أو حيوان يعيش بلا شعور، ويحيا بلا فكر.. إن كان فيوربـاخ يــرى أن عظمــاء الرجــال هم الــذين يصــنعون التــاريخ ويقيمــون

الحضارات ويبنون الإقتصاد، فإن ماركس ـ نبي استبدادنا ــ فكان يرى ـ وكنا نرى معه ـ أن الإقتصاد هو الذي يصنع عظماء الرجال.

كان ماركس يرى أن المجتمعات البشرية عبارة عن حظائر تنقلها من حالة إلى حالة مقادير الطعام والشراب والفساد.

وبعد أن قامت الثورة البلشفية أصبح الأدب والفن والشعور والقصص والمسرحيات كلها تدور مع دولاب الآلة، وأصبح الكلام صناعة ونفاقا لأن أية كلمة تخرج عن خط الحزب ستدفن مع صاحبها تحت التراب أو تحت سياط العذاب.

لقد عبر ريمون أرون -أستاذ العلوم الإجتماعية في المدنية المعاصرة في كوليج دوفرانس عن هذه الحقائق المرة التي تفننا في فرضها :(وخرافة الثورة إلتي يذهب الماركسيون إلى أنها طوق النجاة للإنسانية من آلامها ليست الا خدعة كبيرة لا تعني سوى إضرام حرائق الفتيل لدك الأسس الحضارية للمجتمعات وسفك الدماء البريئة، ليعقبها قيام نظام دكتاتوري رهيب يفرض سيطرته بقوة الحديد والنار على جموع الشعب، وما يلازم ذلك من تقييد الحريات وخنق الأفكار وإخماد التطلعات المشروعة نحو حياة أفضل ومستقبل أمثل)[1]

ويقول صديقنا الذي تحول إلى عدو لدود لنا :(إن أية ثقافة أو فن لا يتفق مع آراء الحزب يعتبر شكليا، ويدفن ويسخر منه ولا يستطيع أن يرى النور)[2]

لم يكن للكاتب والمبدع في ظل الاستبداد الذي أنشأناه إلا ثلاثة خيارات:

إما الهرب الى الدول الغربية ــ إن تسنى له ذلك ــ وهذه ظاهرة كبيرة في الدول الإشتراكية، فقد هجرت الأدمغة هذه الأوطان التي عاشت فيها.

وإما أن يتخلص من الحياة بالإنتحار أو الشذوذ النفسي

1() كتاب أفيون المثقفين لريمون أرون الفرنسي ص(61)

2() الصنم الذي هوى ص(236)

والتمرد.

وإما أن يجد مكانة بين المصفقين الذين يحرقون البخور ويهللون ويكبرون باسم الحزب، ويدفن جميع أفكاره لتصبح الحياة وقيمها عنده لقمة غذاء أو خرقة كساء.

قلت: وأخيرا انهارت امبراطورية الاستبداد التي أسستموها.

قال: لا بد أن تنهار كما تنهار كل الامبراطوريات.. لقد انهارت امبراطوريتنا ـ التي أرادت أن تزاحم الله ـ في معاقلها بعد قرابة سبعين عاماً من قيام الحكم الشيوعي، وبعد أربعين عاماً من تطبيق أفكارها في أوروبا الشرقية.

لقد أعلن كبار خلفائنا من المستبدينن في الاتحاد السوفيتي قبل تفككه أن الكثير من المبادئ الماركسية لم تعد صالحة للبقاء، وليس بمقدورها أن تواجه مشاكل ومتطلبات العصر.

قلت: وتركتم خلفكم قطبا واحدا يتحكم في دفة العالم.

قال: لقد كان العالم قطبا واحدا في عهدنا وبعد عهدنا.. وإن جاز أن يكون هناك قطب آخر في العالم، فهو قطب المستضعفين أولئك الذين ضحكنا كثيرا على أذقانهم.. واليوم أراهم ﴿ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ (المطففين: 34 ـ 35)

قلت: ولكن العالم كله كان يعلم أنه كان هناك قطبان.

قال: تلك مسرحية هزلية اجتمع أهل الاستبداد على تمثيلها، واقتسام أدوارها، ليمتصوا الدماء التي تجري في عروق المستضعفين.. وإن أبيت إلا أن تخالفني فاذهب إلى الدجال، فسينبئك من علم ذلك ما لم تكن تعلم.

قلت: وأنى لي أن أرى الدجال..

قال: ما أكثر الدجاجلة.. فإن شئت أن تعلم نبأنا فاقصد أحدهم، فنحن على قلب رجل واحد.

قال ذلـك.. ثم انعقـد على لسـانه، وراح يصـيح بهذيانـه، وقـد احمر تمثاله احمرارا يكاد ينفجر به.

تركنا لينين منشغلا بآلامه.. ولم نسر إلا قليلا حـتى رأيت رجلا أعرفـه كـل المعرفـة.. لقـد كـانت صـورته على شاشـات التلفـاز تتصدر كل الأحداث.. وكان يليها مباشرة صـور طائراتـه الضـخمة، وهي تمطــر المستضــعفين بــالموت الزعــاف.. لم يكن يحب من الحياة إلا قهر الحياة..

ولكنه كان في وكر المستكبرين مقيدا بقيود كثيرة.. كم تمنى المستضعفون أن يروه مقيـدا بواحـد منهـا.. لقـد شـعرت بسـعادة عظيمة وأنا أراه مغلولا في تلك القيود، وكم تمنيت لو كنت أحمـل معي آلة تصوير لأزف بصورته مع قيوده إلى الثكالى والأيتام.. ولم يكن ذلك حقدا.. فيعلم اللـه أني لا أبغض شـيئا مثـل امتلاء النفس بالحقــد.. ولكــني كنت ســعيدا لأني أرى الكــبر والظلم وجميــع الجرائم الإنسانية مقيدة معه في تلك القيود.

ســهوت عن معلمي.. واقــتربت من ذلــك الــذي ملأ الأرض لهيبا.. فصحت فيـه بنـبرة تنـبئ عن نشـوة المنتصـرين.. قلت لـه: وأخيرا.. ها أنت تقيد بالقيود الـتي قيـدت بهـا أمم الأرض.. ويكـال لك من العذاب ما كنت تكيله لهم.

نظـر إلى قيـوده باحتقـار، ثم قـال: ليتـني امتلأت من مفـرق رأسي إلى أخمص قـدمي قيـودا.. ونـزع ــ في مقابـل ذلـك ــ من ذاكرتي ما يعذبها من أنواع الذكريات..

ثم أمسك ببعض قيوده، وقـال: إن مـا تـراه من قيـود وأغلال شيء بسيط، بل لا يكاد يساوي شيئا أمـام الآلام الـتي يضـيق بهـا صدري، وتختنق بها أنفاسي.

إن كل طفل شوهته.. وكل امـرأة رملتهـا.. وكـل رجـل لعبت بكرامته.. وكل حياة خنقتها يقفون الآن وقبـل الآن.. ولســت أدري إلى متى.. يخنقونني ويصبون الآلام على نفسي.. ليتهم يقتلونني.. ليتهم يذيقوني من الموت ما أذقتهم..

قلت: حدثني عن سرك الذي قيـدك بهـذه القيـود.. وأخـبرني

عن أعماقك التي زجت بك إلى هذه الأوكار.

قال: حديثي طويل.. فأنا من أمة لم تكن ترى إلا نفسها.. كنت سليل عائلة ملكية تبدأ من الذين أبادو الهنود الحمر.. وخطفوا العبيد من أركان الأرض.. وتنتهي إلي.. أنا الذي حافظت على سننهم، فأبدت أمما من أمم الأرض.. وخطفت جميع شعوب العالم..

قلت: عرفت قومك..

قال: ومن لا يعرفهم.. كلهم يعرفونهم.. هم الذين زجوا بي في هذه الأوكار.. كانت بطونهم لا تشبع.. ولم يكن يرضيهم إلا أن أختطف لهم خبز الفقراء، وأسقيهم دماءهم.. لقد كانوا يحبونني حبا جما.. وكانت شعبيتي تزداد كلما أرقت لهم المزيد من الدماء.. وقدمت لهم بكثير من الخبز.

قلت: فمن أنت؟

قال: لن تعرفني حتى تعرف سلفي.. فقد كنت شر خلف لشر سلف.

قلت: عرفت أنهم الذين أبادوا الهنود الحمر وخطفوا الأحرار وحولوهم عبيدا..

قال: لا أقصد هذا..

قلت: فما تقصد؟

قال: سلفي الذين كانوا يسكنون البيت الذي كنا نسميه البيت الأبيض.. ولم يكن بياضه إلا ستارا حائلا للسواد الذي تمتلئ به قلوبنا.

قلت: أتريد أن تحدثني عن جميع رؤساء قومك؟

نفاق:

قال: لا أريد أن أحدثك عن التاريخ.. ولكني أريد أن أحدثك

عن المبادئ.. فجذور أعماقي تبدأ من تلك المبادئ (1)..

قلت: فحدثني.. وبسط ما استطعت، فإني لا أكاد أفهم لغتكم التي تتداولونها ويتداولها سدنتكم.

قال: عمدا نفعل ذلك.. لقد كنا نتلاعب بالألفاظ والمبادئ والقوانين كما نتلاعب بالبشر وبالتاريخ وبالجغرافية.. لقد كنا لا عبين ماهرين نجيد كل صنوف اللهو التي تقتل الحياة، وتدمر الإنسان.

قلت: فحدثني حديث سلفك.

قال: كان لنا سلف اسمه مونرو James Monroe، وقد نشر حينها مبدأ، كتلك المبادئ التي تسمعونها كل حين.. وقد عرف هذا المبدأ باسمه (2)، وكان يقضي بأن الولايات المتحدة لا تتدخل في شؤون الدول الأخرى، كما أنه لا يحق لأي دولة أن تتدخل في شؤون العالم الأميركي.

قلت: هذا مبدأ جيد.. ولا أرى سلفك هذا إلا سلفا صالحا.

ضحك بشدة، وقال: أتقول عن سلفي هذا : إنه سلف صالح.. انظر تحت قدمي..

نظرت فرأيت رؤوسا كثيرة يدوسها بقدمه، وكانت تصيح بصياح حيل بيني وبين سماعه.

قال: أترى هذه الرؤوس؟

قلت: أعمى أنا إن لم أرها.. ما بالها.. وما بالك تطأ عليها؟

قال: إن رأس سلفي الصالح الذي ذكرته أحد هذه الرؤوس، فإن شئت أن يحدثك عن مبدئه، وما ينطوي عليه من خيرية حدثك.

1() استفدت الكثير من التوثيقات المرتبطة بهذا من كتاب: مبادئ الرؤساء الامريكان، تأليف: سليم الحسني.

2()صدر هذا المبدأ رسمياً في كانون الأول سنة 1823.

قلت: لا بـأس.. فقـد علمـني معلمي أن لا أتعلم العلم إلا من أهله.

ركله بضربة قاسية، ثم قال: كلمه يا عزيزي مونرو.. هو يريد أن يعرف مبادئك.. مبادئ العالم الحر الذي استعبدنا العالم لأجله.

رفـع مـونرو رأسـه بشـدة، وقـال: إن مبـدئي كمبـادئ غـيري يجسد النفاق الذي ورثناه أبا عن جد.

قلت: وضح ذلك..

قال: لقد أصبح مبدئي ـ الذي سـمي باسـمي ــ مرتكـزاً ثابتـاً في التـبريرات الـتي تحتاجهـا دبلوماسـيتنا عنـدما تريـد أن تـرفض طلبات المساعدة القادمة من الخـارج، أو عنـدما تريـد أن تتـدخل بعيداً عن الأضواء.

قلت: كيف ذلك؟

قال: لقد كان هذا المبدأ يشكل الواجهـة الـتي نظهرهـا.. أمـا الحقيقة، فكانت غـير ذلـك تمامـا.. لقـد كـان السـلوك الفعلي لنـا يخرج عن دائرة هذا المبدأ.

وكمثال على ذلك أنه عندما تزايـدت الـدعوات بضـرورة دعم اليونـانيين في طلبهم الفصـل عن الدولـة العثمانيـة، ووصـلت الى درجة المطالبـة بـالاعتراف الرسـمي بالحكومـة اليونانيـة لم نتخـذ قراراً رسمياً لصالح اليونان في المساعدة والدعم، لكننا ـ مع ذلك ـ كنا نرسل المسـاعدات الماليـة والقـوات العسـكرية تحت سـتار مساعدات الشعب الأميركي والمتطوعين الأميركيين.

وقـد سـاهمت هـذه المسـاعدات في نجـاح الثـورة اليونانيـة، وتحويـل اليونـان الى دولـة منفصـلة عن الدولـة العثمانيـة.. ولـولا المساعدات الأميركية لما تمكن اليونـانيون من الفـوز في معركـة الانفصال.

وقـد تكـرر نفس الموقـف مـع جزيـرة كـريت، حيث قـدمنا مساعداتنا للثوار بصورة غير رسـمية، في الـوقت الـذي كنـا نعلن

فيه رسمياَ انه لا تستطيع دعم الثوار، لان ذلك يتعارض مع مبدأ مونرو.. مبدئي الذي عرف باسمي مع أنه مبدأ كل المنافقين والمستبدين.

ونفس الأمر حصل في بلغاريا، فقد أعلنا التزامنا بمدأ مونرو، ولكن المبشرين الأميركان كانوا هم الذين يتحملون أعباء كبيرة في ثورة البلغار ضد العثمانيين.

قلت: فقد كنتم تمارسون سياسة مزدوجة إذن..

قال: سم الأمور بأسمائها.. إنه النفاق..

قلت: ولم لا تسميه الحكمة؟

قال: هو حكمة في حالة نصرة المستضعفين.. أما في حالتنا فهو النفاق لأننا كنا نخون من يستنجد بنا أحوج ما يكون إلينا متذرعين بمبدئي..

وسأضرب لك على ذلك مثلا.. عندما تعرضت الدولة العثمانية قبيل الحرب العالمية الأولى إلى اعتداءات عسكرية من قبل إيطاليا ودول البلقان، قدمت طلباتها إلينا بالتدخل السلمي واستخدام وساطتنا لانهاء هذه الاعتداءات.. لكنا رفضنا ذلك..

قلت: لم؟

قال: لقد تذرعنا بعبارتنا التي نضعها في المحل الذي نراه مناسبا..

قلت: ما هي؟

قال: ما بالك.. إنها سياسة عدم التدخل التي حددها مبدأ مونرو.

قلت: فلم خصصتم الدولة العثمانية بالخذلان؟

قال: أراك أميا في سياستنا.. نحن صليبيون من الجذور..

قلت: لكني لم أسمع أنكم ـ على الأقل في ذلك الحين ـ كنتم

قد غزوتم ديارنا.

قال: نحن نغزو بكل الوسائل.. وفي الميدان الذي تتحدث عنه، حصل ــ مع بداية القرن التاسع عشر ــ أول استخدام عسكري لنا ضد العالم الاسلامي.. وقد كان ـ من باب الصدفة أو التخطيط ـ أول تجربة للبحرية الأميركية خارج مياهها الاقليمية.

قلت: حدثني عن هذا.. فلم أسمع به.. ولعل أكثر قومي يجهلونه.

قال: في نهايات القرن الثامن عشر قرر سدنة سياستنا ـ بضغط من بطوننا التي لا تشبع، وبتشجيع من رجال الحملات التبشيرية ــ أن نقتحم أسواق الشرق، وأن تقيم علاقات تجارية متينة مع البلدان الاسلامية في حوض البحر المتوسط، فدخلنا في مفاوضات سريعة مع طرابلس وتونس والجزائر والمغرب، من أجل الحصول على تسهيلات اقتصادية كبيرة تجعل بلادنا متقدمة على سواها من الدول الغربية.

قلت: لا حرج عليكم في طلب ذلك، فكل تاجر يحب أن يستأثر بأفضل المواقع.

قال: لكنا خرجنا عن أسلوب التاجر المسالم، فمارسنا أسلوب التاجر المصارع.

قلت: كيف ذلك؟

قال: لم تسفر المفاوضات عن نتيجة مرضية لنا مما جعلنا نلجأ إلى أسلوبنا الذي مارسناه كل حين.

قلت: إلام لجأتم؟

قال: إلى القوة العسكرية.. ألا تعلم أنا لا نتقن شيئا كما نتقن القوة.. لقد هيأنا أسطولنا الحربي للتدخل العسكري البعيد.. وبذلك بدأنا مرحلة التوسع الطويلة التي لا نزال نسلك طريقها.

وقد كانت الحملة ناجحة الى حد كبير، فقد استطاعت بحريتنا أن تحقق أغراض دبلوماسيتنا في توقيع الاتفاقيات الاقتصادية مع

دول شمال إفريقيا، والتي أصبحنا ـ بموجبها ـ الدولة الأفضل في التعامل التجاري والمتمتعة بأكبر قدر من التسهيلات.

وقد علمنا ذلك أن نقتلع خبزنا بسلاحنا.. وقد تبلور ــ حينها ـ مفهوم المصالح القومية للأمة الأميركية، واصبح أحد المرتكزات الاساسية في السياسة الخارجية، كما ارتبط استراتيجياً بالخيار العسكري الأميركي.

***

سكت مونرو تاركا المجال لرأس آخر من تلك الرؤوس، قال: لعلك لا تعرفني.. أنا روزفلت.. أنا Franklin D. Roosevelt

قلت: ماذا فعلت أنت؟

قال: أنا الكل.. لقد كان مونرو ضعيفا، فلذلك لجأ إلى أسلوب النفاق الذي لا نزال نستخدمه.

قلت: وأنت!؟

قال: أنا وضعت البذور التي خرج بها قومي إلى ممارسة الدور البوليسي الذي يحكمون به العالم.

قلت: كيف ذلك؟

قال: لا مناص لك أن تعرف بعض التاريخ.. فمبادئنا لا تنشئها القيم.. بل تنشئها الأحداث والفرص.

قلت: فحدثني عن التاريخ.

قال: بعد نهاية الحرب العالمية الاولى، وما نشأ عنها من تحولات أساسية في الخارطة الدولية وجدنا أن التطورات الجديدة لا تنسجم مع التمسك الظاهري بمبدأ مونرو، وانه لا بد من تحديد خط جديد للسياسة الخارجية.

قلت: لا بأس بهذا.. فالسكوت عن نصرة المستضعفين سلبية.

قـال: عن أي مستضـعفين تتحـدث.. نحن لا نتحـدث إلا عن مصالح الأمة الأمريكية.

قلت: فماذا فعلتم؟

قال: رأينا أنه من أجل أن نمارس دورنا في قيـادة العـالم، لا بد أن تنتهج خطأ عسـكرياً مـؤثراً على الاحـداث الدوليـة، بالشـكل الذي يؤهلنا لمواجهة أية مشلكة تهدد الامن القومي، وتقـف بوجـه المصالح الأميركية، اعتماداً على الامكانات الهائلة التي نمتلكها.

قلت: لقـد قـررتم إذن دخـول الحـرب مـع أنهـا كـانت بعيـدة عنكم.

قال: أجل.. لقد حاولنا من خلال القـوة العسـكرية ان نطبـق سياسـتنا الجديـدة الـتي تقضـي بـأن (على الولايـات المتحـدة ان تمـارس دوراً بوليسـياً لحفـظ النظـام الـدولي، يسـتند إلى قـوة عسكرية تستطيع ان توفر مستلزمات هذا الدور)

قلت: فهذا هو مبدؤك إذن؟

قال: أجل.. وهو مبدأ كل من جاء بعدي.. وبقدر ما تتـوفر لـه القوة يعظم هذا الدور.

قلت: فكيف طبقته؟

قـال: أنـا في الحقيقـة صـاحب الفكـرة.. وقـد سـعيت بكـل الطرق لتحقيقها لكني لم أستطع.. فالأوضـاع لم تكن في صـالحي تماما.

لـذلك اقـترحت على بريطانيـا في فـترة الحـرب إنشـاء قـوة بوليسية مكونة من الولايات المتحدة وبريطانيا.. لكن هذا الاقـتراح لم ينجح لان ظروف الحرب لم تعط بريطانيـا فرصـة التفكـير في مرحلة ما بعد الحرب.

وبعد الحرب، فكرت في الاعتماد على الاتحاد السـوفيتي في مساعدتنا على تكوين القوة البوليسـية العالميـة.. لكن هـذا الامـل كـان بعيـداً عن الواقعيـة، حيث عـارض الاتحـاد السـوفيتي بشـدة

فكرة روزفلت.

قلت: فلم تنجح في تحقيق ما أردته إذن؟

قال: لم أنجح لأن الظروف كانت مختلفة.. ومـع ذلـك نجحت في إقناع الأمريكيين بمبدئي.. لقد تحولت أسس هـذه السياسـة ـ والمتمثلـة في القـوة الأميركيـة العالميـة ــ الى مرتكـز ثـابت في التفكير الأميركي، وقد تعامل معها الرؤساء الذين خلفوني بحسب ما أتيح لهم من فرص.

***

نطق رأس آخر قائلا: لقد واتتني فرص عظيمة جعلتني أخرج مبدأ صاحبي من النظرية إلى الواقع..

قلت: من أنت؟

قال: أنا Harry Truman.. لقد شكلت سياستي البداية الفعلية لسياسة بلادي الخارجية، ونقطة الانطلاق في استراتيجيتها العامـة لفترة ما بعد الحرب العالمية الثانيـة، والـتي تمثـل مرحلـة جديـدة في السياسـة الدوليـة.. لقـد أتقنت انتهـاز فـرص التـدخل باسـم العدالة والإنسانية.

قلت: فما الشعار الذي حملته، والذي سمح لك بالتدخل؟

قال: أنا صاحب شعار :(الروس قادمون).. لقـد ملأت قلـوب العالم رعبا من الشبح الروسي لأستغلهم وأسـتعمرهم وأضـمهم ـ شاءوا أم أبوا ـ إلي.. وأجني من وراء كل ذلك خـبزا كثـيرا، ودمـاء كثيرة.

قلت: لقد بدأت الحرب الباردة إذن؟

قـال: هم يسـمونها كـذلك.. ولكن الحقيقـة المبطنـة الـتي لا يعرفها الكل هي خلاف ذلك تماما.

قلت: لقد كان أهم مـا يشـغل صـانعي القـرار الأمـيركي في تلك الفترة منع انتشار الفكر الشيوعي في العالم.

قال: هذا في الظاهر.. أما في الحقيقة، فنحن لا يهمنا الفكــر الشيوعي أو غير الشيوعي.. إن ما يهمنا شيء واحد هــو مصــالحنا القومية التي خرجنا نغزو العالم في سبيلها.

قلت: كيف ذلك؟

قال: لقد كان غول الاستبداد الذي تمتلئ بــه نفوســنا يــدعونا إلى قمع وصراع كل من يخالفنا.. كان يمكن أن يحصل حــوار بيننــا وبين الشيوعيين نجنب فيه العالم ويلات الصــراع.. بــل كــان يمكن أن نلتقي معهم على أشياء كثــيرة نســتفيد منهــا جميعــا، وتســتفيد البشرية.. وينتشر السلام.

قلت: فلم لم تفعلوا؟

قال: لأن عدونا الأول هو السلام.. عندما يعم العالم السلام لا نســتطيع أن نســلب وننهب ونمــارس دور الشــرطي الــذي يخافــه الكل ويسترحمه الكل.. أخبرني.. أيهمــا أحب للصــوص: الفوضــى، أم الهدوء والسلام؟

قلت: لا شك أنها الفوضى.. فبالفوضى يستطيع أن يمــد يــده من غير أن يلتفت له أحد.

قال: ولذلك نشرنا.. ولا زلنا ننشــر الفوضــى في العــالم.. فلا يؤذينا شيء.. ولا يحد من مطامعنا شيء مثل الســكون والســلام.. أضف إلى هذا.. نحن شرطة.. كل أمير منا شرطي.. والشــرطة لا بد أن توجد لصوصا..

قلت: فمن اللصوص الذين أوجدتموهم لتصارعوهم، وتخلصوا العالم منهم..

قال: لقد كان اللصوص ـ الذين ســميناهم لصوصــا ــ لصوصــا حقيقيين.. فلذلك كنا نتفــق معهم في البــاطن، ونختلــف معهم في الظــاهر.. فــاللص لا يمكن أن يكــره أصــحاب حرفتــه.. ولكنــه قــد يتصارع معهم من أجل بعض المواقع.

قلت: فهل تصارعتم على بعض المواقع؟

قال: تصارعنا على كل المواقع.. وجررنا الشعوب كلها إلى الصراع.. حتى شعوبكم البسيطة التي لا ناقة لها في صراعنا ولا جمل.

قلت: فحدثني عن شعوبكم التي لا تزال تصلى بنيران سياطكم.

قال: أولها إيران.. فقد كانت نقطة البداية.. وقد استغلت إدارتي اتفاقية التحالف الثلاثي في النفوذ إلى ايران، ومزاحمة القوة السوفيتية.

فقد نصت هذه الاتفاقية أن تسحب كل من بريطانيا وأميركا والاتحاد السوفيتي، قواتها العسكرية من إيران خلال فترة اقصاها ستة اشهر بعد نهاية الحرب العالمية.

ولأضعك أمام الأحداث بدقة أذكر لك أنه في صيف 1945 اندلعت أحداث هامة في شمال ايران، حيث شكل الاكراد (جمهورية مهاباد)، وسعى (حزب تودة) الى تأسيس جمهورية مستقلة في أذربيجان بمساعدة الجيش الاحمر الذي احبط محاولات السلطة المركزية في انهاء حركات الانفصال.

وقد أثارت هذه الاحداث مخاوفنا على مصالحنا في المنطقة، فلذلك طلبت إدراتي في تشرين الثاني 1945 من بريطانيا والاتحاد السوفيتي سحب قواتهما العسكرية بكاملها من ايران.

واستناداً الى موقف حكومتي، فان إيران قدمت الى مجلس الامن احتجاجاً اتهمت فيه السوفيت بانتهاك سيادة اراضيها، كما واصلت واشنطن احتجاجاً على موسكو لسحب قواتها من اذربيجان.

وافق السوفيت على سحب قواتهم، ولكنهم ضغطوا على الايرانيين لقبول انشاء شركة نفط مشتركة، يحصل فيها الاتحاد السوفيتي على 51% من قيمة العقد، على ان تصل مدة العقد الى خمسين عاماً، حيث تحصل الشركة على امتيازات التنقيب في خمس مناطق شمالية من ايران.

قلت: يا لهؤلاء اللصوص..

قال: لقد كنا جميعا نمارس هذا الـدور.. فاجتماعاتنـا المغلقـة كانت لا تختلف عن اجتماعات المرابين والسماسرة.

قلت: فهل رضخ الإيرانيون؟

قال: لقد وقفنا بجانبهم ليرفضوا هذا العرض.. فما كـان للص أن يعين لصــا.. لقـــد أعلن الســفير الأمـــيركي في طهـــران، أن الحكومـــة الأميركيـــة تعتقـــد أن إيـــران حـــرة في قبـــول او رفض الاتفاقية، وانها اذا ما قررت الرفض فان أميركا ستقدم لها دعمهـا للوقـوف ضـد الابـتزازات السـوفيتية.. وقـد شـجع هـذا الحكومـة الايرانية على رفض اتفاقية النفط في تشرين اول عام 1947.

قلت: لقد قدمتم خدمة للإيرانيين بهذا؟

قال: ليست هناك خدمة بلا مقابـل.. وقـد نلنـا مصـالح كثـيرة بموقفنا هذا.. أقلها وقوفنا مـع المسـتكبرين في إيـران من الشـاه وحاشيته في وجه المستضعفين فترة ليست بالقصيرة.

قلت: أهذا هو دوركم الوحيد في المنطقة؟

قال: لا.. لقد أقدمت إدارتي على خطوة ثانية أعظم خطــرا.. وهو الدور الذي لا يزال قومك يعانون منه.. إنه الدور المؤثر الـذي قاد الى اعلان قيام الكيان الإسرائيلي.

لقـد كنـا على قناعـة تامـة بأهميـة ايجـاد دولـة يهوديـة في فلسطين، باعتبار أن هذه الدولة سـتكون ركـيزة متقدمـة للوجـود الأمـيركي في الشـرق الاوسـط.. لـذلك أقـدمنا على سلسـلة من الاجراءات والمواقف كانت تقود نحو قيام الدولة اليهودية.

ففي نهايـــة آب 1945 طلبت من الحكومـــة البريطانيـــة أن تسمح بالهجرة اليهودية الى فلسطين، تمهيداً لقيام الدولة.

نعم.. لقـد ووجهت بمعارضـة من قبـل مسـؤولين كبـار في حكومـتي، اعتـبروا ان قيـام دولـة يهوديـة في فلسـطين، سـيحفز الاتحاد السوفيتي على إيجاد مركز نفوذ في البلاد العربية.

قلت: لقد حصل هذا بالفعل.

قال: أغبياء.. كلكم أغبياء.. لقد كنا نمثل أدوارنا بدقة.. إن السوفيتيين كانوا أكثر اهتماما بإنشاء تلك الدولة منا.. ألم تسمع لينين.. لقد كنا نتقاسم الأدوار، فينهب كل منا ما أطاق من النهب.

إن دورنا لا يختلف عن دور الشطار الذين يحرضون اللصوص، ثم يقبضون الأموال من الناس ليحموهم من اللصوص.

نعم.. لقد حاولت بعض الاوساط ان تقنعني بانشاء دولة مشتركة في فلسطين، غير اني ـ لعقيدتي الصهيونية التي أحملها، وبتأثير من الصهاينة ـ رفضت الاقتراح، كما رفضت اقتراحاً آخر باقامة اتحاد فدرالي يضم دولتين إحداهما عربية والاخرى يهودية، مع انشاء حكومة مركزية تشرف عليها بريطانيا.

وبدل ذلك كله ضغطت على البريطانيين وعلى الامم المتحدة للموافقة على قرار التقسيم، وقد نجح بهذا المسعى، حيث صدر قرار الامم المتحدة في تشرين الثاني 1947 بتقسيم فلسطين.

ولم أقف عند هذا الحد، بل اعلنت انني سأرسل قوات عسكرية أميركية الى فلسطين ما لم يتم تنفيذ قرار التقسيم، لكنني اضطررت الى التخلي عن قراري هذا بعد ان اقنعني مستشاري بان مثل هذه الخطوة تؤثر على المصالح النفطية الأميركية في الشرق الاوسط.

وعندما لم يعد بامكاني فرض التقسيم وافقت على اقتراح فرض وصاية الامم المتحدة على فلسطين، لكنني تراجعت عن رأيي عندما ادركت ان موافقتي هذه سوف تكون سبب هزيمتي في انتخابات عام 1948، مما جعلني أرفض اقتراح الوصاية، وأؤيد قيام الدولة اليهودية.

وفي منتصف مارس 1948 اعلن عن قيام دولة اسرائيل، فاعترفت بها إدراتنا فوراً، وقبل ان تطلع ممثلها في الامم المتحدة.

قلت: هذا مع أممنا المستضعفة.. فما فعلتم مع أبنــاء عمكم من المستكبرين الذين خرجوا مرهقين من الحرب العالمية؟

قال: لقد ورث أبناء عمنــا من الأوروبــيين أزمــتين خطــيرتين، احتاجا فيها إلينا أيما حاجة.. فاستغللناهما أبشع استغلال.

قلت: ألستم ترحمون أبناء عمومتكم؟

قال: لا أخفيك أننا نرحمهم، ونفرق في تعاملنا بينكم وبينهم.. ولكنا ـ في أثناء رحمتنا لهم ـ لا ننسى مصــالحنا.. فمصــالحنا فــوق كل اعتبار.. إننا من أمة لا تعرف الإيثار والرحمة التي تعرفونها.

لقــد نشــرت في ذلــك الحين شــعارا يقــول :(نخــدم أنفســنا بخدمتنا للآخرين)

قلت: فما هي الأزمتان اللتنان مر بهما أبناء عمومتكم، وكيف وقفتم بجانبهم؟

قال: هما كابوسان ثقيلان ورثتهما أوروبــا من الحــرب.. ازمــة اقتصــادية خانقــة، وخطــر رابض على حــدودها الشــرقية، لا تمتلــك لدرئه القوة الكافية.

ولم يكن أمام أوروبا خيار سوى اللجوء إلينــا لأننــا خرجنــا من الحرب لا نحمل الجراح الــتي يحملونهــا، بــل نفضــنا غبــار الحــرب، وأخذنا نبحث عن مكاسب لا تنتهي.

قلت: فماذا فعلتم مع الكابوس الأول؟

قال: قدمنا مشــروع مارشــال عــام 1947 لإنعــاش الاقتصــاد الأوروبي المنهــار.. وقــد ســاهم هــذا المشــروع في إنقــاذ اقتصــاد الدول الغربية من مشاكله الخطيرة، الا انه في مقابل ذلــك جعلــه تحت هيمنة اقتصادنا.

قلت: وعسكريا؟

قال: أعلنا عن استعدادنا لدعم الدول الأوروبية الــتي تتعــرض لتهديد السوفيت، كما اعتبرنا أنفســنا مســؤولين عن امن وســلامة

هذه الدول، وهذا ما أتاح لنا تمثيل دور الشرطي خير تمثيل.

وقد استفدنا لتدعيم هـذا الـدور من سـلاحين مهمين لا نـزال نستخدمهما:

أمـا الأول.. فهـو السـلاح النـووي.. السـلاح الـذي اخترعتـه الشـياطين لقهـر المستضـعفين.. وقـد كنـا مطمئـنين إلى تفوقنـا النووي على الاتحاد السوفيتي، وكنا نرى في هذا التفوق ما يسمح لنا بممارسة دور الشرطي خير ممارسة.. وقـد كـان هـذا السـلاح رادعاً لأي تحرك سوفيتي نحو الغرب، لان الحرب المقبلة فيما لـو فكـر السـوفيت بشـنها على أوروبـا، لا بـد ان تكـون شـاملة في نظرنا.. وهذا يعني تدمير الاتحاد السوفيتي بالسلاح النووي.

وانطلاقاً من هـذا اعتبرنـا السـلاح النـووي أسـاس المواجهـة الفاعل مع السـوفيت، والعنصـر الاكـبر الـذي يتوقـف عليـه نجـاح استراتيجية الحصر..

ولكن هذا لم يستمر طـويلا.. ففي بدايـة الخمسـينات امتلـك السـوفيت السـلاح النـووي.. وحينـذاك تـراجعت قيمـة العنصـر الاساس في استراتيجية الحصر، الا أننا ـ مع ذلك ـ لم نـتراجع عن نظرتنا للسلاح النووي، اذ بقينا ننظر اليه على انه اداة الحسم في الحرب المقبلة.

قلت: أي حرب؟

قال: أي حرب..

قلت: هذا السلاح الأول.. فما السلاح الثاني؟

قال: هو ما مارسه اليهـود والمشـركين مـع نـبيكم في غـزوة الخندق..

قلت: الأحلاف العسكرية..

قال: نعم.. فهي السـلاح الـذي يفعـل مـا لا يسـتطيع السـلاح النووي القيام به.

قلت: فمع من تحالفتم؟

قال: مع كل الشياطين.. لقد أقمنا حزاما قويا من التحالفات والقواعد العسكرية التي تقف بوجه أي محاولة توسع شيوعي نحو البلدان الاخرى.

لقد كانت الظروف التي رافقت حكوماتنا على تبني استراتيجية الحصر، مشجعة على هذا الاتجاه، حتى أنه في بعض الحالات جاءت بمبادرة من الدول الغربية، ثم استجبنا لها وادخلناها في برامجنا الاستراتيجية.

قلت: لا زلنا نسمع عن الحلف الأطلسي.. وهو لا يزال يمارس دوره في سحق المستضعفين.. فهل كان من تنظيركم وتأسيسكم؟

قال: لقد كانت فكرة إنشاء مثل هذا الحلف تدور في ذهني، لكني لا أزعم لنفسي جرم تأسيسه، فإنشاؤه لم يكن بمبادرة أميركية، انما جاء بمبادرة الدول الأوروبية.

لقد كانت بريطانيا وفرنسا في طليعة الدول الغربية المتخوفة من الخطر السوفيتي، وقد عرضت هاتان الدولتان على دول بلجيكا وهولندا واللكسمبورغ فكرة عقد معاهدة سياسة فيما بينها.. وقد تم ذلك في بروكسل في 17 آذار 1948، حيث عقد مؤتمر لهذه الدول ادخل التحالف العسكري ضمن المعاهدة باعتباره ضرورة ملحة لتحقيق اهدافه.

ثم بدأت هذه الدول مفاوضاتها معنا بغية اشراكها في المعاهدة لتنظيم دفاعات عسكرية قوية لأوروبا الغربية، فوافقت إدراتي على الدخول في صيغة المعاهدة.. فقد كانت متلهفة لمثل هذه التحالفات.

بعد موافقتنا بدأت الدول الخمس تسعى لايجاد ميثاق عسكري يتولى مهمة حماية امن شمال الاطلسي، وقد عرضت هذه الفكرة على الدول الغربية الاخرى، فوافقت كندا والنرويج والدنمارك وآيسلنده والبرتغال وايطاليا، ثم انضم إلى الحلف تركيا واليونان.. ثم انضمت ألمانيا الغربية، ليصبح عدد دول الحلف 14

دولة.

قلت: فلم تكونوا إلا طرفا واحدا في هذا الحلف؟

قال: نحن لا نرضى في أي طـرف نكـون فيـه بغـير الزعامـة والاستبداد.. ألا تسمع بحق الفيتو؟

قلت: بلى.. وهــو مــا تســتعملونه دائمــا في صــفع وجــوه المستضعفين لتختموا به كل ما يبذولونه من جهود.

ضحك، وقال: نعم.. لقد كنا نضـحك على جهـودهم وأمـوالهم التي يرشون بها كل الناس.. مـع أن في انتظـارهم صـخرة الفيتـو التي تفقدهم صوابهم.

قلت: فهل مارستم هذا الدور مع هذا الحلف؟

قـال: أجـل.. لقـد أصـبحت سياسـة الحلـف العامـة وطبيعـة المهام الموكلة اليه تسير حسب وجهـات نظرنـا.. وذلـك من خلال آلية ادارة شؤون الحلف العسكرية والسياسية، فقد جعلت إدارتنـا قيادة الاسلحة النووية والتقليدية من اختصاصنا لوحدنا، فصار قرار الاستخدام الفعلي لقدرات الحلف بيدنا.. كما أننـا وزعنـا الاسـلحة النووية والتقليدية على مناطق الحلف بالشكل الـذي يتناسـب مـع استراتيجيتنا في كل مواجهة.

قلت: ألم يثر تسلطكم هذا نخوة المنتمين لهذا الحلف؟

قال: أجـل.. وذلـك شـيء طـبيعي.. فليس هنـاك من اسـتمر على صداقتنا ومحبتنا.. فأنانيتنا تجعلنا هدفا لكل الأحقاد.. لقد اتخذ بعض أعضاء الحلف مواقف متصلبة منا بشكل خاص ومن الحلــف بشكل عام، فقد انسحبت فرنسا من الحلف عام 1966، وازدادت بعد ذلك مطالبـة الـدنمارك والـنرويج بالانسـحاب ايضـاً، ورفضـت اسبانيا الانضمام للحلف لنفس الدوافع.

ولكن بــالرغم من ذلــك إلا انــه ظــل اقــوى الاحلاف الــتي اسسناها او ساهمنا في تأسيسـها، فقـد حقـق الاطلسـي الى حـد كبير العديد من المهـام الموكلـة اليـه، حيث سـاهم في إمـداد دور

الشرطي الذي أردنا فرضه على العالم.

جرائم:

بعـد أن امتلأ قلـبي غثـاء من ذلـك النفـاق الـذي تحكم في السياسة الأمريكية، سألت معلمي عن سره، وسـر النفـوس الـتي طفحت به، فأشار لي إلى مرآة تشـبه التلفزيـون، وقـد ارتسـمت فيها الكثير من الدماء والمآسي والآلام، فقلت له: ما هذه المرآة؟

قال: هذه المـرآة هي أكـبر ألـوان العـذاب الـتي يتعـذب بهـا هؤلاء الطغاة.. إنها تريهم جرائمهم ونفوسهم وقلوبهم القاسية..

فجـأة رأيت رجلا يشـبه الهنـود الحمـر يتوسـط تلـك المـرآة، وكان يحمـل عصـا غليظـة يقـرع بهـا بعض الـرؤوس، وهـو يقـول: اسمعني جيدا يا [وليم برادفورد].. لقد كنت حينها حاكم مستعمرة بليتموت، وكنت تقول عن الأوبئـة الـتي توزعونهـا علينـا، وتقتلوننـا بها: (إن نشر هذه الأوبئة بين الهنود عمل يدخل السـرور والبهجـة على قلب الله، ويفرحه أن تـزور هـؤلاء الهنـود وأنت تحمـل إليهم الأمراض والموت، وهكذا يمـوت 950 هنـدي من كـل ألـف، وينتن بعضهم فوق الأرض دون أن يجد من يدفنه إنـه على المؤمـنين أن يشكروا الله على فضله هذا ونعمته)

ثم راح يقرع رأسا أخـرى، ويقـول: أنت الـذي أنشـأت نظـام السخرة لبني قومي.. هل تذكر عام 1846م حين احتلت جيوشـك كاليفورنيا، وتمكنت من إبـادة 80 في المائـة من هنـود كاليفورنيـا بالسخرة حيث نشط بجانب ذلك التجارة بالأطفال والنساء.

راح يقرع رأسا أخرى، ويقول: أنت أيها المستكبر .. أتذكر ما فعلت سـنة 1830م.. لقـد سـننت قـانون ترحيـل الهنـود قسـراً، فأصبح من حق المستعمر الأمـريكي أن يطـرد الهنـدي من أرضـه ويقتلـه إذا أراد، ويومهـا حصـدت قـوات الجيش الأمـريكي من لم يمت من 5 شـعوبٍ هنديـة كاملـة (الشـيروكي - والشـوكتو - والشيسكومسو - والكريك - والسيميتول) بعد تهجيرهم قسراً إلى مناطق موبوءة بالكوليرا.

راح يقرع رأسا أخرى، ويقول: أنت أيها المستكبر .. أنت يا جورج واشنطن .. يا والد الولايات المتحدة الأمريكية.. أنت الذي أطلق عليك هنود السينيكا اسم [هدام المدن].. وصدقوا في ذلك، فبموجب أوامرك تم تدمير 28 مدينة من أصل 30 مدينة كاملة لهنود السينيكا وحدهم من البحيرات الكبرى شمالاً وحتى نهر الموهوك، وفي فترة قياسية لا تزيد عن خمس سنوات، وهذا ما تم أيضاً بمدن الموهوك، والأنونداغا، والكايوغا، حتى أن أحد زعماء الأروكوا قال لك عام 1792م (عندما يذكر اسمك تلتفت نساؤنا وراءهن مذعورات وتشحب وجوههن، أما أطفالنا فإنهم يتلببون بأعناق أمهاتهم من الخوف)

راح يقرع رأسا أخرى، ويقول: أنت أيها المستكبر .. أنت يا [توماس جيفرسون]، يا من يلقبونك كذبا وزورا [رسول الحرية الأمريكية وكاتب وثيقة استقلالها].. هل تذكر ذلك اليوم الذي أمرت فيه وزير دفاعك بأن يواجه الهنود الذين يواجهون التوسع الأمريكي بالبلطة، وأن لا يضع هذه البلطة حتى يفنيهم، وقلت له: (نعم إنهم قد يقتلون أفراداً منَّا، ولكننا سنفنيهم ونمحو آثارهم من الأرض)

راح يقرع رأسا أخرى، ويقول: أنت أيها المستكبر .. أنت يا [...].. أتذكر عام 1636م حين استخدمت السلاح الجرثومي ضد بني قومي.. لقد كتبت تطلب من قوادك أن يجروا مفاوضات مع الهنود، ويقدموا لهم بطانيات مسمومة بالجدري، فأجابك أحدهم بقوله: (سأحاول جاهداً أن أسممهم ببعض الأغطية الملوثة التي سأهديهم بها، وسآخذ الاحتياطات اللازمة حتى لا أصاب بالمرض).

وببطاطين ومناديل تم تلويثها في مستشفى الجدري انتشر الوباء بين أربعة شعوب هندية (الأوتاوا - ينيغو - والمايامى الينى - ونايبه) وأتى على أكثر من مائة ألف طفل وشيخ وامرأة وشاب.

وبعد حوالي 15 سنة كنتم تتساءلون عن أفضل وسيلة للقضاء على هنود كاليفورنيا، وقد كتبت حينها إحدى صحف سان فرانسيسكو تقول: (إن الهنود هنا جاهزون للذبح وللقتل بالبنادق أو بالجدري ... وهذا ما يتم الآن فعلاً)

راح يقرع رأسا أخرى، ويقول: أنت أيهـا المسـتكبر .. أنت يـا [...].. لقد كنت طبيبا.. وكنت مستبدا مسـتكبرا .. أتـذكر مقولتـك عـام 1855م .. دعـني أذكـرك بهـا.. لقـد قلت: (إن إبـادة الهنـود الحمر هي الحـل الضـروري للحيلولـة دون تلـوث العـرق الأبيض.. وإن اصطيادهم اصطياد الوحوش في الغابات مهمة أخلاقية لازمـة لكي يبقى الإنسان الأبيض فعلاً على صورة الله)

راح يقرع رأسا أخرى، ويقول: أنت أيهـا المسـتكبر .. أنت يـا [فرانسيس ياركين].. لقد كنت مؤرخا.. وكنت مستبدا مسـتكبرا .. أتذكر مقولتـك: (إن الهنـدي نفسـه في الواقـع هـو المسـئول عن الدمار الذي لحق به لأنه لم يتعلم الحضارة ولابد له من الزوال ... والأمر يستأهل)

راح يقرع رأسا أخرى، ويقول: أنت أيهـا المسـتكبر .. أنت يـا [..].. لقـــد كنت قاضـــيا في المحكمـــة العامـــة في مســـتعمرة ماسوسيتش.. وكنت من هواة التمثيل بالأحياء والتلاعب بهم.. هـل نسيت هوايتك في سلخ فروة الرأس .. هل نسيت كم رصدت من مكافآت لمن يقتل هندياً، ويأتي برأسـه إليـك، ثم اكتفت بعـد ذلـك بسلخ فروة الرأس..

ومنذ ذلك الحين.. وبدءاً من [وتزل] صار قطـع رأس الهنـدي وسلخ فروة رأسه من الرياضات المحببة في أمريكا، بل إن كثـيراً منهم كان يتباهى بأن ملابسه وأحذيته مصنوعة من جلود الهنـود .. وكانت تنظم حفلات خاصة يدعى إليها علية القـوم لمشـاهدة هـذا العمل المثير - سلخ فروة رأس الهندي –

راح يقرع رأسا أخرى، ويقـول: أنت أيهـا المسـتكبر المـدعو [الكولونيل جـورج روجـرز كلارك] هـل تـذكر حفلـة أقمتهـا لسـلخ فروة رأس 16 هندي.. حينها طلبت من الجـزارين أن يتمهلـوا في الأداء، وأن يعطـوا كـل تفصـيل تشـريحي حقـه لتسـتمتع الحاميـة بالمشاهد.. ومع ذلك كله ظللت فترة طويلة رمـزاً وطنيـاً أمريكيـاً وبطلاً تاريخاً..

راح يقرع رأسا أخـرى، ويقـول: أنت أيهـا المسـتكبر المـدعو

[أندره جاكسون].. لقد كنت رئيسا من رؤساء أمريكا الكبار.. وقـد ظلت صورتك في ورقـة العشـرين دولار فـترة طويلـة.. ألا أتـزال تذكر أنك كنت من عشاق التمثيل بالجثث وكان يأمر بحساب عـدد قتلاك بإحصاء أنـوفهم المجدوعـة وآذانهم المصـلومة، وقـد رعيت بنفسـك حفلـة التمثيـل بـالجثث لـ 800 هنـدي يتقـدمهم الـزعيم [مسكوجي]

تركنـا الهنـدي يقـرع رؤوس المجـرمين، وسـرنا في متاهـات مظلمة، لم نر شيئا مما فيها إلا أنا سمعنا أصواتا كثيرة مزعجة.

سألت صاحبي عن وجهتنا، فقـال: نحن نسـير الآن إلى زعيم المستبدين، ورئيسهم.. ذلك الذي اجتمعت في استبداده كل أنـواع الاستبداد، وصـبت في بحـره كـل أنهـار الفتن.. ذلـك الـذي اجتمـع الأنبياء والأولياء على التحذير منـه.. واجتمـع الأشـقياء والشـياطين على التحضير له، والاستعداد للقائه.

قلت: أراك تقصد أمرا لا يصح لنا أن نخوض فيه.

قال: وما هو هذا الذي خفت منه؟

قلت: أراك تقصد الدجال.. فهو زعيم المستبدين.. وهو الـذي اجتمع الكل على التحذير منه.. كما يجتمع الكل على الترحيب به.

قال: أراك لم تخطئ هدفي.. فمـا الـذي يخيفـك من التحـاور معه.. أتخاف أن يفتنك؟

قلت: وحق لي أن أخاف من أمر خاف منه السـلف، وامتلأت بالمهابة منه قلوب الخلـف.. ألم تسـمع مـا ورد في الأحـاديث من خوف الصحابة .. فعن النواس بن سمعان قـال: ذكـر رسـول اللـه ﷺ الدجال ذات غداة، فخفض فيه ورفـع، حـتى ظنناه في طائفـة النخل، فقال ﷺ لما رأى مخافتهم :(غيرُ الـدجال أخوفـني عليكم، إن يخرج وأنا فيكم؛ فأنا حجيجـه دونكم، وإن يخـرج ولسـت فيكم؛ فامرؤ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم)[1]

قال: وأعلم ما ري عن عائشة قالت: دخل عليّ رسـول اللـه ﷺ وأنا أبكي، فقال لي :(ما يبكيك؟)، قلت: يا رسول الله! ذكرت الدجال فبكيت. فقال رسول الله ﷺ :(إن يخرج الـدجال وأنـا حي كفيتكموه، وإن يخرج بعدي؛ فإن ربكم ليس بأعور..) الحديث

---

[1] () مسلم (8/197-198)، وأبو داود(2/213)

وأعلم ما روي عن أم سلمة زوج النبي ﷺ فقد قالت: ذكـرت المسيح الدجال ليلـة فلم يـأتني النـوم، فلمـا أصـبحت دخلت على رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال :(لا تفعلي؛ فإنه إن يخرج وأنا حي؛ يكفيكمـوه اللـه بي، وإن يخـرج بعـد أن أمـوت؛ يكفيكمـوه اللـه بالصالحين)

بل فوق هذا أروي قوله ﷺ :(ما من نـبي إلا وقـد حـذر امتـه الـدجال، وإني أحـذركموه: إنـه أعـور، وإن اللـه ليس بـأعور، إنـه يمشي في الأرض، وإن الأرض والسماء للـه، ألا إن المسـيح عينـه اليمنى كأنها عنبة طافية)[1]

ومع ذلـك.. فإنـه لا طريـق لتحقيـق الأمن إلا العلم.. فالجهـل سـرداب من سـراديب الخـوف.. ولا يقيـك من المخـاوف مثـل تحصنك بحصون العلم.

قلت: هذه مخافة وجيهة، ولا أقصدها.. فقد وصف لنا رسـول اللـه ﷺ أنواعـا من الحصـون من التزمهـا حفظـه اللـه من فتنـة الدجال.

لقد أمرنا بالاستعاذة منه، والنأي عنـه، وقـراءة فـواتح سـورة الكهف، ودخول ناره لا جنته.. بل علمنا ﷺ كيف نـؤدى الصـلاة في وقته.

قال: هذه كلها حصون وصـفها رسـول اللـه ﷺ.. ولكن هنـاك حصونا أخرى ينبغي أن تتخذوها.. ففتنة الدجال فتنة عظيمة تحتاج من كل المستضعفين إعدادا خاصا.

قلت: أنا لا أقصد كل هذه المخاوف مع وجاهتها.. ولكني أرى أن الكلام في هذا من الخوض فيما لا يجوز.. فـأنى لنـا أن نتحـدث عن الدجال، وهو لم يأت بعد.

قال: ألم يخبرنا رسول الله ﷺ عن أكثر التفاصـيل المرتبطـة به؟

1() ابن خزيمة (ص32)، وقال الهيثمي (7/351): (رواه الطـبراني، ورجالـه ثقـات؛ إلا أن شيخ الطبراني أحمد بن محمد بن نافع الطحان لم أعرفه). وقـال الحافـظ ابن كثـير (1/138):(قال الذهبي: إسناده قوي)

قلت: بلى.. لقد كان رسـول اللـه ﷺ حريصـا على أن يحـدثنا عن كل ما يتعلق بالدجال.. حـتى ملامحـه الظـاهرة، فقـد ورد في الحديث قوله ﷺ :(ما كانت فتنة ولا تكون حتى تقوم الساعة أكبر من فتنة الدجال، ولا من نبي إلا وقد حذر أمته)(1)

بل ذكر ﷺ تفاصيل كثيرة مرتبطة بشخصه، فقـال :(إني قـد حدثتكم عن الدجال حتى خشيت أن لا تعقلوا، إن المسيح الـدجال رجـل قصـير أفحج جعـد أعـور مطمـوس العين ليس بناتئـة ولا حجراء)(2)

قال: أجل.. فقد كان رسول الله ﷺ حريصا على تبليغ أمته ما يحفظ لها دينها من الفتن، ولهذا كان يصف ويبالغ في الوصف، بل يحث على حفظ الوصف، فقد جاء الحديث السابق: (إني حـدثتكم عن الدجال حتى خشيت أن لا تعقلوا)

وقد جاء في وصف نزول عيسى بن مريم u :(الأنبياء إخوة لعلات أمهـاتهم شـتى ودينهم واحـد، وأنـا أولى النـاس بعيسـى بن مـريم لأنـه لم يكن بيـني وبينـه نـبي، وإنـه نـازل فـإذا رأيتمـوه فاعرفوه..)(3)

قلت: انظر إلى قوله ﷺ :(فاعرفوه)، ففيهـا إشـارة صـريحة إلى التحصن بالعلم في مواجهة الفتن، وفي استقبال الحقائق.

قال: ففيم الخوف إذن؟

قلت: أخاف من أن نقع في التنزيـل المنهي عنـه.. فقـد وقـع أقـوام في فتنـة التنزيـل، فحرفـوا كلام رسـول اللـه ﷺ، وشـوهوا جمال تعاليمه.

قال: ما تقصد بالتنزيل؟

قلت: ما وقع فيه بعض الأقوام من تفسير النصوص بالأحداث

(1) رواه أحمد 13698.

(2) رواه أبو داود 4320 ، وأحمد 22258.

(3) رواه أبو داود 4324 ، وأحمد 9017 .

التاريخيـة، والتكلـف المقيت في ذلـك.. كمـا حصـل مـع قـوم من علماء الهند، حيث نزلوا حديث الرايات السـود على خـروج السـيد أحمـد الـبريلوي بتكلفـات بـاردة، مـع أن السـيد لم يـدع المهدويـة قط(1).

بل إن الشطط والتكلف بلغ ببعضـهم إلى حـد اصـطناع هـذه الأشراط، وإيجادها في الواقع عنوة، حـتى إن من مـدعي المهديـة من يغـير اسـمه واسـم أبيـه، أو يـدعي الانتسـاب إلى آل الـبيت الشريف ليحول من نفسه مهديا(2).

وقـد كـان لكـل ذلـك آثـاره التاريخيـة السـيئة في الحيـاة الإسلامية، ومن أمثلة ذلك ما ذكره الـبرزنجي قـال :(وظهـر قبـل تأليفي لهذا الكتاب بقليل، رجل بجبال عقر أو العمادية من الأكراد يسمى عبد الله، ويدعي أنه شريف حسـيني، ولـه ولـد صـغير ابن اثنتي عشرة سنة أو أقل أو أكثر، قد سماه محمدا ولقبه المهـدي، فـادعى أن ابنـه هـو المهـدي الموعـود، وتبعـه جماعـة كثـيرة من القبائل، واستولى على بعض القلاع، ثم ركب عليـه والي الموصـل ووقع بينهم قتال وسفك دماء، وقد انهزم المدعي وأخـذ هـو وابنـه إلى استنبول، ثم إن السـلطان عفى عنهمـا ومنعهمـا من الرجـوع إلى بلادهما وماتا جميعا)(3).

وأعجب منـه صـنيع الجنبـوري، قـال أبـو رجـاء محمـد الشـاه جهـانبوري في الهديـة المهديـة: إن الجنبـوري -واسـمه محمـد بن يوسـف الحسـيني- لم يمنـع أصـحابه من ذلـك ــ أي من نسـبة المهدوية إليه ـ ولأجلها بدل اسم أبيه بعبداللـه، واسـم أمـه بآمنـة، وأشاعهما في الناس(4).

ومن المضحكات المبكيات في هذا ما صنعه ميرزا غلام أحمد القيداني والذي ادعى الإصلاح، ثم التجديد، ثم المهدويـة، ثم كونـه

1() الإذاعة 136، وانظر الإذاعة 158.

2() المهدي وفقه أشراط الساعة 631.

3() الإشاعة 255.

4() كتابه المهدي وفقه أشراط الساعة 429.

المسيح المنتظر، فقام ببناء منارة بقاديان سماها منارة المسيح وذلك بعد دعواه المسيحية بـ12 سنة، وذلك ليكمل دعواه أنه المسيح ابن مريم الذي ينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق(1).

قال: صدقت في مخاوفك هذه.. ولكنها لا تنفي التنزيل المشروع.. وإلا فإن هذا الورع لو طبقناه بجميع وجوهه لم ننتفع بما ورد في أحاديث الفتن.

ألم تسمع ما روي أن الصحابة لما سمعوا رسول الله ﷺ يحدثهم عن الدجال، فخفض فيه ورفع ظنوا أنه في طائفة النخل، وشكوا في ابن صياد أنه المسيح الدجال، بل منهم من أقسم لرسول الله ﷺ على ذلك، ولم ينكر عليهم، بل قال ﷺ :(إن يخرج وأنا فيكم، فأنا حجيجه دونكم)، بل يروى عن أبي ذر الغفاري قوله :(ما تؤيسني رقة عظمي ولا بياض شعري أن ألقى عيسى بن مريم)

بل قد ورد في السنة ما يشير إلى جواز التنزيل، بل دلالته على كمال العلم، فقد وردت الأحاديث في خبر الرجل الذي يقتله الدجال فيقطعه جزلتين، وفيه قول الرجل :(أشهد أنك الدجال الذي حدثنا عنك رسول الله ﷺ)(2)، فهذا خبر صحيح يدل بوضوح على هذا.

قلت: صدقت في هذا.. وأنا لا أجادلك فيه.. ولكني أخشى سهام العلماء.. فأنا طويلب علم قاصر.. وفي العلماء من يملك لسانا شديدا لا يقل عن سيف الحجاج.

قال: فما تخشى منهم؟

قلت: أخشى أن يرموني بالبدعة.. أو يطلقوا مني زوجتي.. أو يدفنوني في غير مقابر المسلمين.

قال: لا تخش شيئا من ذلك.. فهم أورع من أن يفعلوا ذلك..

---

(1) انظر القاديانية لإحسان إلهي ظهير 164.

(2) رواه البخاري 1882 ، ومسلم 2938 ، وأحمد 10925.

أخبرهم فقط أن العلماء ـ الذين يستفاد منهم الورع ــ لم يكونوا يتحرزون من مثل هذا..

واذكر لهم القرطبي، فقد قال بعد ذكر بعض الأشراط:(كل ما وقع في حديث معاوية هذا، فقد شاهدناه بتلك البلاد، وعاينا معظمه إلا خروج المهدي)

واذكر لهم محمد صديق حسن خان، فقد قال ــ بعد ذكر علامات للساعة ــ :(وهذه الجملة من الأشراط موجودة تحت أديم السماء، وهي في التزايد يوما فيوم، وقد كادت أن تبلغ الغاية، أو قد بلغت، ولم يبق إلا الأشراط الكبرى التي أولها ظهور المهدي عليه السلام ولا شك أننا الآن أقرب إلى هذه العلامة من أي وقت مضى)[1]

قلت: أراك تريد أن توقعني في متاهة لست أدري كيف أخرج منها.. إن ما تريده مني لم يجرؤ عليه أحد من الأمة.. فلا تجعلني أخرق الإجماع بخروجي.

قال: لا بأس عليك.. سندخل هذا الباب من نوافذ ذكرها لنا رسول الله ﷺ، ولن يناقشنا في دخولنا منها أحد.

قلت: أراك تريد الاحتيال، وهو أبغض الأشياء إلى نفسي..

قال: ليس في الأمر أي احتيال.. بل هو إعمال للنصوص، وبحث في السنن.. ولن يتسنى لنا أن نكون أنصارا للمهدي والمسيح ما لم نعرف الدجال، وأساليب الدجال.

قلت: فمن أي النوافذ تريد أن نطل؟

قال: من نافذة أحاديث كثيرة يخبر فيها رسول الله ﷺ عن تعدد الدجال..

قلت: تعدد الدجال!؟.. لا أعرف الدجال إلا واحدا.. ذلك الذي يقتله المسيح بباب لد[2].

---

[1] المهدي وفقه أشراط الساعة 695.

[2] كما قال ﷺ :(يقتل ابن مريم الدجال بباب لد) رواه الترمذي (2245)، وابن

قال: ذلك زعيمهم الأكبر الذي اجتمع له كل ما اجتمع لغيره.. ولكن مع ذلك، فقد وردت الأحـاديث بأنـه يسـبق بـدجالين كثـيرين يكون هو آخرهم.

قلت: فحدثني بهذه الأحاديث.. فلا يحل الخوض في مثل هـذا بدون الأنوار المشعة من مشكاة النبوة.

قال: لقد صح الحديث عن رسول اللـه ﷺ أنـه قـال:(إن بين يدي الساعة كذابين)[1]

وفي حديث آخر قال ﷺ:(لا تقوم الساعة حتى يقتتـل فئتـان فيكون بينهما مقتلة عظيمة دعواهما واحدة ولا تقوم الساعة حـتى يبعث دجالون كذابون قريبا من ثلاثين كلهم يزعم أنه رســول الله)[2]

وقد وقع الجـزم بهـذا العـدد في قولـه ﷺ:(لا تقـوم السـاعة حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين وحتى يعبدوا الأوثـان، وإنـه سيكون في أمتي ثلاثون كـذابون كلهم يـزعم أنـه نـبي وأنـا خـاتم النبيين لا نبي بعدي) [3]

وورد في حـديث آخـر تحديـد عـدد آخـر، فقـد قـال ﷺ :(في أمتي كذابون و دجالون، سبعة وعشرون، منهم أربع نســوة، و إني خاتم النبيين، لانبي بعدي)[4]

قلت: صدق رسول الله ﷺ.. ولا أرى أن هذا يغني عنا شيئا..

قال: كيف ذلك؟

حبان (1901)، والطيالسي (2/219)، وعبد الـرزاق (20835)، وأحمـد (3/420)، والـداني (143/1 و2)، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

[1] رواه مسلم 2923.

[2] رواه البخـاري 3609 ، ومسـلم 157 ، وأبـو داود 4333 ، والترمـذي 2218 ، وأحمد 7187.

[3] رواه الترمذي 2219 ، وأبي داود 4252.

[4] رواه أحمد 22849.

قلت: لقد أخبر ﷺ عن عـدد محـدود من الـدجالين، ولا ينبغي لأي عقل أن يزعم أن فلانا من الناس أحدهم إلا إذا رضـي لنفسـه أن تخوض فيما ليس لها به علم.

قال: فسندخل هذا الأمر من زاوية لا يمكن لأحـد أن يجادلـك فيها.

قلت: هذا ما أريده.. فـإني امـرؤ لا أحب أن أتهم في ديـني.. ولا أحب لذلك أن أقف مواقف التهم.

قـال: أجبـني.. هـل شـك الصحابة في كـون ابن الصـياد هـو الدجال؟

قلت: لا شـك في ذلـك، وقـد رويت النصـوص الصحيحة في ذلك.

قال: وما مصدر شكهم؟

قلت: لقـد كـان في ابن الصـياد الكثـير من العلامـات الـتي تجعله شبيها بالدجال.. فقد كان ابن صياد يهوديا والدجال يهـودي.. وهو دجال وذاك دجـال.. وهـو أعـور وذاك أعـور.. ومـع ذلـك فقـد اتفق الكل على أن ابن الصياد ليس هو الدجال[1].

قال: وأنا أقول بذلك.. ولا أجادلك فيه.. وإنما أريد أن أخـبرك بأن الدجاجلة كثيرون.. وسنزور أحدهم.. فلا تخف، فلن يجرؤ أحـد على أن يطلق زوجتك منك.

قلت: ولكن ما فائدة البحث في كـل هـذا.. أخـاف أن أتـورط بمـا تـورط فيـه بعض المشـاغبين من قـومي.. فراحـوا يرضـون فضولهم وفضول الناس، ويتلاعبون بأوقاتهم وأمـوالهم بباطـل من القول وزور.. ولم يكتفوا بذلك بل راحوا يقسـمون على مـا ذهبـوا إليه، وكأنهم اطلعوا على اللوح المحفوظ [2].

1() قال البرزنجي في بيان عدم صحة كون ابن صياد هو المسيح الدجال :(وحاصله أن الأصح أن الدجال غير ابن صياد وإن شـاركه ابن صـياد في كونـه أعـور ومن اليهـود، وأنـه ساكن في يهودية أصبهان، إلى غير ذلك، وذلك لأن أحاديث ابن صـياد كلهـا محتملـة وحـديث الجساسة نص، فيقدم) انظر: الإشاعة 293.

2() لقد كثرت تخرصات كثير من المعاصرين الـذين لم يحـاولوا البحث في السـنن،

قـال: لا تخـف.. فلن ننتهج مـا انتهجـوه.. فنحن لا نبحث في التـواريخ ولا الأسـماء.. فلا يعنينـا شـيء منهمـا.. بـل نبحث في السنن.. والسنن تقتضي أن نحتاط للأمور قبل وقوعها.

قلت: إن لي فضولا كثيرا في معرفة التفاصيل، فهل تأذن لي في طرحه.

قال: لا.. لم يؤذن لك أن تتحدث معه إلا فيما يخدم بحثك عن

وراحوا يبحثون فيما يرضي الفضول الذي لا يفيـد علمـا ولا سـلوكا، بـل يتجـرؤون على اللـه، فيقسمون على صدق ما يدعونه من الجدل:

ومن ذلك ما كتبه محمد عيسى داود في كتابه (احذروا) ص59 متحـدثا عن الأطبـاق الطـائرة :(وأقسـم لكم باللـه غـير حـانث أنهم من هـذه الأرض، ومن أبنائهـا، ولكنهم رجـال المسيخ الدجال، وتلك الأطباق من اختراعه الذي سبق به زماننا بقرون)

ومن ذلك ما كتبه أمين محمـد جمـال الـدين في كتابـه هرمجـدون ص48:(لقـد كنت حريصا ألا أتورط في تنزيل الأحاديث على الواقع، ليس لعدم جواز ذلك، كلا، فإنـه جـائز، بـل يجـوز الحلـف باللـه على غلبـة الظن، وإنمـا منعـا للجـدل وتحـرزا عن الـدخول في متاهـات المشـغبين ممن لم تتسـع دائـرة علمهم ولم ترسـخ بعـد في العلم أقـدامهم، ولكن هيهـات هيهات.

أما الآن، وبعد أن أصبح الناس كلهم أو جلهم يتوقعـون حروبـا وملاحم تتجمـع أسـبابها وتتسارع وتيرتها، وتكاد تدق الأبواب، فإنني لا أجد غضاضة ولا حرجا في ذكر ما أعلم وتنزيـل الأحاديث على الواقع، بل أستطيع أن أقسم على ذلك، ولا أظن أن أحدا الآن يجرؤ على خلـع برقع الحياء، فيجادل أو يشغب إلا من أراد أن يشتهر أو يتكسب، فإن الأمر قد جد جـده، ولم يعد هناك وقت للتهريج)

ويقول في ص7 :(أستطيع أن أحلف ولا أسـتثني أن ملاحم آخـر الزمـان، والـتي تبـدأ بالحرب العالمية الثالثة والأخيرة قد كشرت عن أنيابها، وشمرت عن ساعديها، وكشـفت عن ساقيها)

ويقول في ص119 :(أحلف ولا أستثني أن أولى الجولات بدأت بالفعل)

ويقول الدسوقي في كتابه القيامة الصغرى على الأبواب ص247 :(فإذا ثبت لنـا بمـا لا يدع مجالا للشك أن هذا الحدث هو معركة الكويت التي هي الحرب العالميـة الثالثـة، فإننـا الآن نكون يقينا في انتظار الزلزال العظيم الذي هو علـة الخسـوف الثلاثـة الـتي هي الآيـات الثلاث الأولى من الآيات العشر)

والحمد لله ، فمثل هذا لم يصدر إلا عن صحفايين راحوا يملون كل خاطر تمليه عليهم الشياطين، وكمثل على ذلك السبق الصحفي الذي غر رجلا مثـل محمـد عيسـى داود ليقـول في بعض الجرائد :(لم يعـرف العـالم كلـه بفضـل اللـه كاتبـا أو مفكـرا قـال بنظريـة وجـود المسيخ الدجال في مثلث برمودة، وأنـه صـاحب الأطبـاق الطـائرة سـوى الكـاتب الصـحفي محمد عيسى داود...) ثم يقـول :(ومعلـوم للقاصـي والـداني أنـني بصـفتي الكـاتب محمـد عيسى داود عضو نقابة الصحفيين، والمستشار الإعلامي لمؤسسة أمـل الإعلاميـة، الصـاحب الأوحد لفكرة أن المسيخ الدجال هو مخترع الأطباق الطائرة، وأن لـه قلعـة بمثلث برمـودة، ولا يوجد كاتب في كل الدنيا قال بـذلك غـيري، وقـد تعـدى "فلان..." بسـرقة نتـائج أبحـاثي، وانتحلها لنفسـه، وذلـك ثـابت بكتـابين لـه تم إبلاغ النيابـة عنهمـا، وهي الـتي قـامت بتحريـك الدعوى ضده بتهمة السرقة الفكرية...) ... ثم يقول :(يكفيني فخرا مئـات بـل آلاف القـراء الذين يؤازرونني لعلمهم بالحقيقـة، ويكفيـني فخـرا شـهادة الـدكتور... فلان، الـذي شـهد لي

حصون المستضعفين.

قلت: وما ذاك؟

قال: اثنان: أسلحته التي ينشر بها فتنته، وحصونه التي تتحصنون بها منه.

أسلحة الدجال:

ما استتم صاحبي كلامه حتى سمعنا زئيرا عجيبا تنخلع له القلوب، امتلأ قلبي منه رعبا، فصحت في صاحبي: أين نحن؟

قال: عند الدجال.

قلت: الأعور!؟

قال: لن يكون دجالا حتى يكون أعور.

قلت: اليهودي!؟

قال: لن يكون دجالا حتى يكون يهوديا، أو يمد يده لليهود، أو ترضى عنه يهود.

قلت: أراك أدخلتني فيما أكره.

قال: لا تخف، فإن قيوده تمنعه أن يمد يده إليك..

بأنني رائد هذا المجال، وصاحب الفكرة، ومن عداي عالة علي من الهواة والمقلدين)

ويقول في كتابه المفاجأة ص9 :(اللهم تقبل عملي هذا، واجعلني اللهم من كتبته في لوحك المحفوظ أول رجل في أمة سيدنا محمد ﷺ يمهد للمهدي سلطانه، كما تفضلت علي من قبل وجعلتني أول رجل في الكرة الأرضية يكشف أن المسيخ الدجال له قلعة في برمودة، وأنه صاحب الأطباق الطائرة، وأنه السامري، وأنه صاحب الختم على العملة الأمريكية بشعاره هو، لا الماسونية، وأنه هو الذي صاغ برتوكولات شيوخ صهيون، وأنه صاحب الوجه الآخر للمؤامرة على البشرية، فاجعلني اللهم أول من يبني منبرا للمهدي في مصر والعالم الإسلامي، والكرة الأرضية، ويهيئ العقول للخير القادم، حاملا سنبلة خضراء يتضاعف عطاؤها رزقا واسعا لكل أبناء آدم، وفي اليد الأخرى سيف ليقطع عنق الشر والأشرار، اللهم وكما جعلت كتبي وأفكاري رزقا واسعا للكثيرين في كل مسارات أرضك، فسلط اللهم سيف انتقامك على من يسرق فكري، أو يحاول تعطيل مسيرتي بأي كيد وضيع وضاعة أهل الكيد والسرقة والشر والكذب)

ونحن لا نعجب من نطق هذا بمثل هذا ، ولكن نعجب في أمة تنشر مثل هذا ، وتقرؤه، ثم لا تحاكم صاحبه ... بينما تحاكم المخلصين الصادقين أصحاب الفكر النير.

قلت: أجل.. لقد قرأت حـديث تميم الـداري، وقـد ورد فيـه : (فأتوه فدخلوا عليه، فـإذا هم بشـيخ موثـق شـديد الوثـاق، يظهـر الحزن، شديد التشكي)[1]

سـمعت زمجـرة عجيبـة ارتجت لهـا أرجـاء الأوكـار، ثم تبعهـا صـوت يقـول: من يريـد أن يحـدثني.. فأنـا الـدجال.. أنـا الـدجال الأعور.. أنا أعظم مستبد عرفه التاريخ.. وستعرفه الأرض.

لئن كان فرعون قال : يا قَـوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْـكُ مِصْـرَ وَهَـذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِـرُونَ (الزخـرف: 51).. فـإني لا أرضى بغير حكم الأرض.. الأرض جميعا.. فمـا مصـر.. ولا الشـام.. ولا العـراق.. إلا وجبـات خفيفـة لن تسـد جوعـتي.. بـل لن يسـد جوعتي أوروبا ولا آسيا ولا إفريقيا.. ولا حتى موطـني الـذي يجـاور عرش الشيطان.. بل أنا نهم فوق ما تتصور.. وفوق ما تتصورون.. أنا أريـد أن أسـيطر على الكـون.. الكـون جميعـا بأكوابـه ونجومـه ومجراته.

قلت: لم كل هذا النهم بامتلاك الأشياء مع أنك مهمـا ملكت.. فلن تملك إلا المحل الذي تجلس عليه؟

قال: لقد فاتك أهم شيء في الحياة إن اقتنعت بهذا.

قلت: فما هو؟

قال: السيطرة.. أليست السيطرة هي التي حـركت الرومـان لحكم العالم..

أليست السيطرة هي التي حركت عالم المستكبرين ـ عالمنا ـ للاستحواذ على عالم المستضعفين؟

أتحسب أن كل هؤلاء كانوا بلها حين تركوا أراضيهم الخصـبة، وانتشروا في الأرض ليرضوا تلك اللطيفـة الـتي لا تتلـذذ إلا برؤيـة كل شيء تحت يدها؟

قلت: ولكن التـاريخ أثبت فشـل الاسـتعمار.. فكـل الأراضـي

---

[1] () مسلم (8/205)، وأحمد (6/413 و418)، وأبو داود (2/214)

التي دخلها المستعمرون المتكبرون خرجوا منها، والذلة تكسو وجوههم.

قال: الاستعمار مرحلة من مراحل التسلط.. لم يكن بد منها.. فالعالم كان منفصلا تماما عن بعضه، ولم تكن لديه قوى الدجال التكنولوجية ليسيطر على العالم من غير جنود ولا سلاح.. ولكن ـ بتطور الزمن ـ وجدنا السبل التي نستعمر بها العالم من غير جنود.. بل جعلنا مستعمراتنا تتودد إلينا لنختمها بخاتم الذلة الذي لا يملكه غيرنا.

قلت: أهناك مرحلة أخرى بعد الاستعمار يمكن للدولة القوية أن تسيطر بها على الدول المستضعفة؟

قال: نعم.. لقد وصلتم اليوم إلى ما تسمونه (العولمة).. أنتم تمهدون لدولتي..

قلت: أنا لا أفهم من العولمة إلا أنها (العملية التي يتم بمقتضاها إلغاء الحواجز بين الدول والشعوب، والتي تنتقل فيها المجتمعات من حالة الفرقة والتجزئة إلى حالة الاقتراب والتوحد، ومن حالة الصراع إلى حالة التوافق، ومن حالة التباين والتمايز إلى حالة التجانس والتماثل، وبذلك يتشكل وعي عالمي وقيم موحدة تقوم على مواثيق إنسانية عامة)[1]

قال: وهذا ما أريده..

قلت: وهذا ما نريده ــ نحن أيضا ــ بل هذا ما يريده كل صاحب حق.. فالعالم إذا اقترب من بعضه مهد لنا السبل لنشر حقنا.

قال: ولكنا لن نترك ذلك يدوم طويلا.. نحن لا نريد المواثيق التي يصنعها المستضعفون.. نخن نريد المواثيق التي نصنعها نحن، ثم نقوم نحن بتصديرها.

قلت: لا يهمنا من يصدرها أو من يوقعها.. المهم أن نمتطيها

[1] د. أحمد مجدي حجازي : العولمة وآليات التهميش في الثقافة العربية ص 3 ، وهو بحث ألقي في المؤتمر العلمي الرابع (الثقافة العربية في القرن القادم بين العولمة والخصوصية) المنعقد بجامعة فيلادلفيا في الأردن في مايو 1998م .

لنؤدي رسالتنا التي كلفنا بها.. ألم يصنع قومك السيارة والطائرة.. ولكنا امتطيناها واستعملناها؟

قال: سحقا لك.. إنك تذكرني بالمهدي..

قلت: ما بال المهدي.. وما الذي جعلك تذكره؟

قال: إنه مارس نفس الأسلوب.. لقد استثمر جميع مـا بنينـاه ليؤسس عليه دولة المستضعفين.. إنه لولا منجزاتنا ما فعل شيئا.

قلت: المهـدي وأوليـاء اللـه ورسـله لا يتنـاولون الأشـياء من أيديكم المنجسة بـرجس الكفـر، بـل إنهم يتناولونهـا من يـد اللـه، فلذلك يملؤها الله لهم بركة.

قـال: دعـني من بركاتـك الـتي تظـل تنعـق بهـا.. إن لي من البركات ما لا يملك معه قومك من المستضعفين إلا أن يقبلوا يدي ورجلي ويذعنوا لي.. بل لا يؤمنوا إلا بي.

قلت: دعني من بركاتك الآن، فسأسألك عنهـا.. لقـد اعتـبرت العولمة مرحلة من مراحل التسلط.

قال: هي المرحلة التي يحاول قومك الآن فرضها على العالم بكل الوسائل.

قلت: فمـا هي المراحـل الـتي تليهـا.. فنحن لا نـزال نعيش زمننا.

قال: مرحلة (العصابات المستكبرة)

قلت: وما تعني هذه المرحلة؟

قال: لن يبقى الحكم للدولة التي تفرض سلطتها على العالم أجمع..

قلت: هل سـيزول نظـام القطب الواحـد الـذي يحكم العـالم اليوم؟

ضحك، وقال: ومتى حكم العالم قطب ثان.. إن المسـتكبرين

مهما اختلفوا في الظاهر ـ متفقون تمام الاتفاق.. ألم تسمع مقالة لينين؟

قلت: فكيف يزول دور الدولة لتحل العصابات بدلها؟

قال: ستضخم الشركات التي تطعمكم السموم ضخامة تجعل الكل عبيدها.. إن السموم التي تتناولونها ستحولكم إلى مدمنين.. والمدمن عبد ما أدمن عليه.. إن هذه الشركات ستستعبد شعوب العالم أجمع.

قلت: أيمكن أن تحكمنا شركة كشركة كوكا كولا؟

قال: العصر الكوكاكولي لن يدوم طويلا.. أغبياء هم الذين سيطروا على ذلك العصر.. لقد تركوا بعض الحرية للمستضعفين، فاخترقوا حصون المتكبرين.. وأسسوا لهم دولة لم نتخلص منها إلا بعد جهد جهيد.

قلت: فما العصابة الذكية التي خلصت العالم من حكم المستضعفين؟

قال: لن تعرف ذلك الآن.. فالشركة التي مكنت للمستكبرين بصورتها الكبرى لم تؤسس بعد.. ولكنها نتاج شركات كثيرة تؤسسونها.

قلت: ما اسمها؟.. وهل لها من علامة تجارية تعرف بها؟

قال: أجل.. اسمها وعلامتها التجارية متشكلة من ثلاثة حروف لا غير: الكاف والفاء والراء.

قلت: الكاف والفاء والراء تعني الكفر.. إن هذا ما ذكره رسول الله ﷺ عن الدجال، فقد قال :(ما من نبي إلا وقد أنذر أمته الأعور الكذاب، ألا إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور، مكتوب بين عينيه: ك ف ر؛ يقرؤه كل مسلم)[1].. وفي حديث آخر، قال ﷺ :(إنه مكتوب بين عينيه: كافر؛ يقرؤه من كره عمله، أو يقرؤه كل مؤمن)، وقال :(تعلّموا أنه لن يرى أحد منكم ربه عز وجل

---

[1] البخاري (13/85)، ومسلم (8/195)، وأبو داود (2/213)، والترمذي (2246) وصححه، وأحمد (3/103.

حتى يموت)(1)

قال: ولكن أكثر الناس لا يلتفتون لهذا ومثلـه.. إن الكثـير من أسماء الشركات التي تستعبدكم تحمل شعارات كثـيرة لا تنتبهـون إليها(2) .. أمــا نحن، فســنغذيهم بــأنواع من الشــهوات تنســيهم الإيمان، فلا يرون اللذة إلا في الكفر.

قلت: أهذه الشركة هي شركتك؟

قال: كنت واحدا من أعضائها.. لكني بعد ذلك صـرت عضـوها الوحيد.. أنا لا أرضى أن يزاحمني أحد السلطة.. ألم تسمع ما قال نبيكم؟

قلت: أتعرف أحاديث نبينا؟

قال: أجل.. وأصدقها.

قلت: فلم تظل على غيك؟

قال: لن تفهم ذلك الآن.. لقد ذكر نبيكم حادثة الذي خـالفني، فقال :(يخرج الـدجال فيتوجـه قبلـه رجـلٌ من المؤمـنين فيتلقـاه المسالح، مسـالح الـدجال، فيقولـون لـه: إلى أين تعمـد؟ فيقـول: أعمد إلى هذا الذي خرج، فيقولون له: أو ما تؤمن بربنـا؟ فيقـول: ما بربنا خفاءٌ! فيقولون: اقتلوه، فيقـول بعضـهم لبعضٍ: أليس قـد نهاكم ربكم أن تقتلوا أحداً دونه، فينطلقون به إلى الدجال)(3)

قلت: فإلام يشير هذا الحديث؟

قـال: يشـير إلى نـوع الحكم الـذي سـينتهي إليـه العـالم في عهدي.

1() مسـلم (8/193)، وعبـد الـرزاق في المصـنف (20820)، والترمـذي (2236) وصححه، وأحمد (5/433).

2() وكمثـال على ذلـك شـعار بيبسـي ، فقـد ذكـر بعضـهم أنـه يشـير إلي اختصـار للكلمات التالية:Pay Every Panny To Save Israil وتعني ادفع كل قرش لكي تنقذ إسرائيل.

3() مسلم (8/200)، وابن منده (1/95).

قلت: وما تسميه؟

قال: الفردنة.

قلت: وما تعني الفدرنة؟

قال: أن يصير الحكم إلى فرد.. فرد واحد يحكم العالم.. فـرد واجد بلا وزراء ولا برلمان ولا أي هيئات أخرى قد تزاحم الحاكم.

قلت: ولم الفردنــة؟.. أليس من الأجــدى أن يتخــذ الحــاكم وزراء وأعوانا يعينونه؟

قال: ذلك الحاكم الضعفيف.. أما الحـاكم القـوي، فلن يحتـاج إلى ذلك.. هل يحتاج ربك إلى وزراء وأعوان؟

قلت: تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

قال: فلماذا تقدس ربك، ولا تقدسني.. كما أنه يسـتولي على العالم وحـده، فسأسـتولي على العـالم وحـدي.. وسـأجعل العـالم يعبدني ولا يحني رقبته لسواي.

قلت: إن حكم فـرد واحـد للعـالم يحتـاج إلى قـوى خارقـة.. فالعالم بطوله وعرضه يحتاج إلى عقول كثيرة تسيره.

قال: أنت ابن عصـرك.. فلـذلك تتكلم انطلاقـا من المعـارف البسيطة التي منت بهـا عليكم المـدارس.. ولكن عصـري مختلـف تماما.. لا بأس.. سأضرب لك مثـالا يقـرب لـك كيـف أحكم العـالم وحدي.. ألا ترى المصانع الضخمة التي تسيرها أياد محدودة؟

قلت: أجل.. فالآلة حلت محل الإنسان في كثير من المصانع.

قال: والآلة ستحكم بدل الحاكم في كثير من الدول..

قلت: أذلك عصرك؟

قــال: لا .. ذلــك العصــر الآلي.. وهــو عصــر فاشــل بكــل المقاييس.. لأن بعض المستضعفين سيعرف أسرار الآلة، فيحولهـا إلى صـفه، كمـا حـول قراصـنة الـبرامج مـا يشـاءون من الـبرامج

لحسابهم من غير أن يدفعوا فلسا واحدا.. ثم يحـول الحكم بعـدها إلى المستضعفين.

قلت: وفي عصـرك.. هـل تحكم العـالم بالآلـة.. بالحواسـيب الضخمة؟

قال: ما تيهكم بحواسيبكم إلا كتيه الصينيين بأوراقهم.. العصر الحاسوبي قاصر جدا بالنسبة للتقنيات التي وصلت إليها.

قلت: فبأي تقنية توصلت إلى حكم العالم والانفراد بحكمه؟

قـال: لن تفهم أنت.. ولن يفهم قومـك شـيئا ممـا أقـول لـو شرحتها.

قلت: لقد حاول بعض قومي أن يفسـر مـا ورد في النصـوص من شأنك، فقال :(بالنسبة لمـا سـيكون مـع الـدجال من كميـات كبـيرة من القمح تشـبه الجبـال، فيمكن تخيلـه بقيـام الشـياطين بزراعـة مسـاحات كبـيرة من الأراضـي الصـحراوية تحت الأرض باستخدامهم أساليب زراعية متطورة كالتهجين، وذلك قبـل خـروج الدجال بعشرات السنوات، ثم تقوم الشياطين بتخزين هـذا القمح في صوامع تحت الأرض، وبأسلوب تخـزين جيـد يحفظهـا لفـترات طويلة حتى يصل حجم ها المخزون على مدار عـدد من السـنوات إلى ما يشـبه الجبـال، فيخـرج الـدجال ومعـه هـذه الكميـات الـتي يغوى بها أهـل الأرض.. وبالنسـبة لقيـام الـدجال بـأمر السـماء أن تمطر فتمطر أمام النـاس، فيمكن تخيلـه بقيـام الشـياطين بصـنع أجهزة علمية للدجال تصنع سحابا صناعيا مزودا بشحنات كهربائيـة مسجل عليها بصمة صـوت الـدجال (مثـل نظـام الخـزائن البنكيـة الـتي لا تفتح إلا ببصـمة صـوت صـاحب الخزينـة فقـط)، فتطلـق الشياطين هذه السحابة من الأجهزة المعدة لذلك من مكـان بعيـد عن المكـان الـذي يقـف فيـه الـدجال أمـام النـاس، وعنـدما تمـر السـحابة من فـوقهم ينـادي الـدجال بإسـقاط مطرهـا، فتصـطدم ذبذبات صوته بالذبذبات المسجلة لصـوته على السـحابة، فتحـدث شرارة كهربائية أو صاعقة بها وتسقط مطرها، ويمكن تخيـل ذلـك أيضا بقيام الشياطين بـإطلاق السـحابة الصـناعية في السـماء من مكان بعيد، وعندما ينادي عليها الدجال تقـوم الشـياطين من خلال

أجهـزة اتصـال كاللاسـلكي أو من خلال سـماع صـوته، وهم في مكـانهم بالضـغط على جهـاز مثـل الريمـوت كنـترول، فيجعلـون السحابة تسقط ما فيها من ماء، ويظن الناس أنهـا أمطـرت بـأمر الدجال)[1]

وذكر هذا المتحـري الـذكي أن الحمـار المـذكور في أحـاديث النـبي ﷺ والـذي سـتمتطيه (مـا هـو إلا طبـق طـائر صـنعته لـه الشياطين، ولكن النبي ﷺ شبهه بالحمار تحقيرا لـه، وليقـرب إلى أهل زمانه وصف الدابة التي سينتقل بها الدجال)

ضحك، وقال: من هذا الأحمق الذي قـاس عبقريـتي بعبقريـة الحمقى والمغفلين؟.. إنـني أعظم شـأنا.. إنـني أعظم من كـل تصور تصـورونه.. ولـولا عظمـتي مـا اجتمـع الأنبيـاء على التحـذير مني.. إنني زبدة الاستبداد وخلاصتها.. إن خلاصـة جميـع معـارفكم وتقنياتكم وصناعاتكم ستصير إلي، وسأخلط بها من التقنيات مـا لا يمكن أن تتخيلـوه.. لا يمكن لأي أحـد من النـاس أن يخمن مجـرد تخمين في الاساليب التي أستخدمها لتنفيذ ذلك.

قلت: لم كان شعارك هو الكفر؟

قال: الآن فقط بدأت تدخل في الموضوع.. والآن فقط بدأت تدرك سر قوتي.

قلت: وما علاقة الكفر بقوتـك؟.. إن الكفـر ـ بمـا ينتجـه من محق ـ هو أساس كل ضعف وهزيمة واندحار.

قال: قد يكون معك الحق في بعض هـذا.. ولكن لـه لـذة مـع ذلـك لا تتصـورها.. ولا يمكن أن تتصـورها.. ألا تـرى السـكير.. إنـه يضحي من أجل النشوة التي تتلبسه أثناء سـكره بكـل القيم الـتي تعرفونها بدءا من جسده، وانتهاء بعلاقاته.

قلت: أنت تدرك إذن عاقبة كفرك.

قال: أدركها.. ولكن إدراكي لها لن يحول بيني وبين تلك اللذة التي أستشعر فيها فردانيتي وعبودية كل شيء حولي.

---

[1] هشام كمال عبد الحميد في كتابه اقترب خروج المسيخ الدجال ص29.

قلت: فلم كان كفرك سر قوتك؟

قال: هذا سر خطير.. ولكن مع ذلك سأبثه لك..

قلت: ألا تخاف من بثه؟

قال: أنا لا أخاف من بثه، لأنه مشتهر بيننا معشر المستبدين، ثم إن إدراككم لـه لن يضـرني شـيئا.. أنـا أعلم أني أنـا المنتصـر.. ولذلك لا أريـد عـدوا ضـعيفا.. أريـدكم بكـل قـوتكم، لأواجهم بكـل قوتي.

قلت: فما سرك الذي لا تخاف عليه.. بل تشهر به؟

قال: لقد ذكرت لك أن قوتي تعتمد على كل ما أنتجتموه من علوم وصناعات.

قلت: لقد ذكرت لي هذا.

قال: هذا هو الجزء الأول من قوتي.

قلت: والجزء الثاني؟

قال: هو السر الذي لن تفهمه.. لقد أقمت حلفا مع الشيطان الأكبر.. مع إبليس الذي أبى السجود لآدم.. مع إبليس نفسه.

قلت: سمعت أن كل المستبدين يقيمون مثل هذا الحلف.

قال: هم يقيمون هذه الأحلاف.. ولكنهم يقيمونها مع الرؤوس الصغيرة، أما أنا فأقمته مع الرأس الأكبر الذي يتربع على عرشه.. فاجتمع لي بذلك قوى البشر، وقوى الشياطين.

قلت: فما نص العقد الذي تعاقدتما عليه؟

قال: لقد تعاقدنا على شيء واحد: أن أنشر الكفر بين الناس بكل ما أطقت.. وأن يعطيني من أسرار التقنيـات مـا عجزنـا عنـه البشر.

قلت: ولكن كيف رضيت بأن تنشـر الكفـر بين النـاس، وأنت تعلم الإيمان، وتعلم عواقب الكفر.

قال: لقد كان الكفر هو الخـادم الأول لأهـدافي.. ألا تعلم أني لا أحب إلا الفردانية، ولا أرضى لمن تسمونه اللــه أن يزاحمـني؟.. لقد خدمني الشيطان بكلا الشقين خدمة لا تقدر بثمن.

قلت: وســائر المســتبدين.. هــل يشــترط عليهم شــياطينهم الصغار الذين يتولونهم هذا الشرط؟

قال: أجل.. فلا يمكن للمسـتبد أن يسـتبد بالإيمـان.. الإيمـان يجعله يتطامن ويتواضـع ويتـذلل.. إنـه يصـير كـالتراب بين رعايـاه تدوسه أقدامهم.. أمـا المسـتبدون فـإنهم لا يسـتبدون إلا بـالكفر.. كــل المســتبدين يــرددون مــع فرعــون :﴿ أَنَــا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ (النازعـات: 24)

قلت: فهل ستردد هذا القول كما ردده فرعون؟

قال: لن أكون دجالا إذا لم أردده.. ولكنـني سـأردده ليسـمعه العالم أجمع.. بل الكون أجمع.. لا كمـا قـال ذلـك القـزم الـذي لم يكن يملك غير مصر، وأنهار مصر.

قلت: ولكنك لن تدخل مكة والمدينة.. فقـد قـال ﷺ :(يجيء الدجال فيطأ الأرض؛ إلا مكة والمدينة، فيأتي المدينـة. فيجـد بكـل نقب من نقابها صفوفاً من الملائكة)[1]

قال: ومع ذلك.. فلم أيأس ممن فيها.. سأخرج منهـا كـل من يحبني ويعبـدني.. أصـمت أذنـاك عن سـماع مـا ورد في ذلـك من الأحاديث؟

قلت: لا.. لقد أخبر ﷺ أن خبث المدينة سيلحقك.. لقد حــدث محجن بن الأدرع أن رسـول اللـه ﷺ خطب النـاس فقـال :(يـوم

1() البخــاري (1/466)، ومســلم (8/206-207)، وأحمــد (3/191 و206 و238 و 292)

وقد ورد في حديث آخر عدم دخوله أربع مسـاجد، قـال ﷺ :(وإنـه يلبث فيكم أربعين صباحاً يرد فيها كل منهل؛ إلا أربع مساجد: مسجد الحرام، ومسجد المدينة، والطور، ومسجد الأقصى، وإن شكل عليكم أو شبه؛ فـإن اللـه عـز وجـل ليس بـأعور) رواه أحمـد (5/434و 435)

الخلاص، وما يوم الخلاص؟ يـوم الخلاص، ومـا يـوم الخلاص؟ يـوم خلاص وما يوم الخلاص؟) ثلاثاً، فقيل له: وما يوم الخلاص؟ قال :(يجيء الدجال فيصعد أحـداً، فينظـرون المدينـة، فيقـول لأصـحابه: أترون هـذا القصـر الأبيض؟ هـذا مسـجد أحمـد. ثم يـأتي المدينـة، فيجد بكل نقب منها ملكاً مصلتا، فيـأتي سـبخة الجُـرُف، فيضـرب رواقه، ثم ترجف المدينة ثلاث رجفات، فلا يبقى منافق ولا منافقة ولا فاسق ولا فاسقة إلا خرج إليه، فذلك يوم الخلاص)[1]

وجاء في حديث جابر بن عبد الله قال: أشرف رسول الله ﷺ على فلــق من أفلاق الحــرة ونحن معــه، فقــال :(نعمت الأرض المدينة، إذا خرج الدجال على كل نقب من أنقابها ملك لا يــدخلها، فإذا كان كذلك؛ رجفت المدينة بأهلها ثلاث رجفات، لا يبقى منافق ولا منافقة إلا خرج إليه، وأكثر من يخرج إليـه النسـاء، وذلـك يـوم الخلاص، وذلـك يـوم تنفي المدينـة الخبث كمـا ينفي الكـير خبث الحديد)[2]

وفي حـديث ابن عمـر قـال: قـال رسـول اللـه ﷺ :(يـنزل الدجال في هذه السبخة؛ بمـرّ قنـاة، فيكـون أكـثر من يخـرج إليـه النسـاء، حـتى أن الرجـل لـيرجع إلى حميمـه، وإلى أمـه، وابنتـه، وأخته، وعمته، فيوثقها رباطاً؛ مخافة أن تخرج إليه)[3]

قال: إن هذا الحديث الذي ذكرت يبين سرا من أسرار قوتي.

قلت: لقـد ذكـر الرسـول ﷺ مخافـة الرجـل على أهلـه أن يتبعوك.

قال: وهذا ما يفرق بيني وبين كثير من المستبدين.. إن أكـثر من سبقني من المستبدين كانوا أغبيـاء.. كـانوا يختطفـون اللقمـة من أفــواه رعايــاهم ليضــموها إلى موائــدها.. أمــا أنــا.. الغــني المطلق.. فقد كنت أبذل لرعاياي كل ما يشتهون.. حتى لـو أرادوا

---

[1] أحمـد (4/338)، والحـاكم (4/427 و543) وقـال: صـحيح على شـرط مسـلم، ووافقه الذهبي.

[2] أحمد (3/292)

[3] أحمد (2/67)

الجنة لنقلتها لهم.

قلت: في مقابل ماذا؟

قال: في مقابل شيء واحد.. أن ينسوا ذلك الذي يسمى الله.. ويفردوني بالسجود والعبادة.

قلت: لقد أخبر ﷺ عن ذلك، فقال: (فيأتي على القوم فيدعوهم، فيؤمنون به، ويستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبت، فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذراً، وأسبغه ضروعاً، وأمده خواصر. ثم يأتي القومَ فيدعوهم، فيردون عليه قوله، فينصرف عنهم، فيصبحون ممحلين ليس بأيدهم شيء من أموالهم. ويمر بالخربة فيقول لها: أخرجي كنوزك، فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل)[1]

قال: لقد وصف نبيكم بعض فتنتي، وهو يتناسب مع طبيعة البيئة التي وجد فيها.. أما حقيقة فتنتي، فلن تعرفها أنت ولا قومك.

قلت: وكيف لا أعرفها أنا ولا قومي.. ونحن في عصر يموج بالفتن.

قال: ألا تعلم أني الزبدة والعصارة والخلاصة؟.. فكما أني خلاصة الاستبداد، فأنا خلاصة الفتن.. إن كل المغريات التي عرفتها البشرية في جميع عهودها ستجتمع لدي كما اجتمعت لدي جميع علومهم وتقنياتهم.. ليس ذلك فقط.. بل تجتمع لدي جميع وساوس الأبالسة وفلسفاتهم.. أنسيت أني قد أقمت حلفي مع الشيطان الأكبر.

ليس ذلك فقط.. بل أنا أجمع بين العلم والفلسفة والشهوات.. فعلمي وفلسفتي يخدمون الشهوات، ويتفننون في عرضها.

قلت: كيف ذلك؟

---

[1]() مسلم (197/8-198)، وأبو داود(213/2)

قال: سأضرب لك مثالا يقرب لـك هـذا.. أنتم تعزفـون أنـواع الموسيقى؟

قلت: إن الشباب عندنا يموج مع رنات الموسيقى كمـا يمـوج البحر الهادر.

قال: تلك موسيقاكم البسيطة البدائية التي لا تستند إلى علم وفلسفة فعلت هذا الفعل في النفوس.. فكيـف بالموسـيقى الـتي وضعت أنا سمفونياتها.

قلت: ألك سمفونيات!؟.. أول مرة أسمع هذا..

قال: إن موسيقاي مؤسسة على علم بالطبيعة البشرية.. فلا تسمعها أذن إلا وخشعت لي أعظم من خشوعكم في صلواتكم.

قلت: أتعجب كيف تكون مستبدا وعازفا موسيقيا.

قال: لست ذلـك فقـط.. لقـد تجمعت في من العبقريـات مـا جعلت الرعية تعبدني عن طواعية.. ألا تـرى قومـك كيـف يعبـدون الأبطال من الممثلين والمهرجين.

قلت: إنهم يعلقـــون صـــورهم على الجـــدران.. وينقشـــون أسماءهم على جلودهم.

قال: لو لم يحفـروا أسـماءهم في قلـوبهم مـا نقشـوها على جلودهم.

قلت: هذا صحيح.. هم يفعلون هذا بداعي الإعجاب الشديد.

قال: إذا فعلوا ذلك مع أولئك البسطاء المهـزولين.. فكيـف لا يفعلونه معي أنـا.. أنـا الجبـار.. منقـذ الإنسـانية من أسـر الكبت.. مرسل الشهوات لتتيه في أودية الأماني.

قلت: لا تســتهن بقــومي.. فــإنهم قــد وصــلوا بــالإغراء إلى درجات لا يمكن تصـورها.. لقـد فتحـوا عيـون الشـهوات، ففاضـت كالأنهار.

صاح في بقوة: ويحك.. أتدري مـع من تتحـدث.. أنت تتحـدث

مع الدجال.. كيف تقول هذا.. ألم أخبرك أني جمعت كل شيء.. فأنا الزبدة والخلاصة.. لئن أجرى قومك أنهار الشهوات، فإن أنهارهم تصب في بحري.. بل في محيطي.. سأقرب لك ما قد تدرك به بعض فتنتي.. أرأيت حياة أشهر المشاهير عندكم؟

قلت: إن حياتهم من الرقي، بحيث لا نستطيع نحن البسطاء أن نتعرف عليها.. فنكتفي بالتفرج على ما تبثه الصحف التي ليس لها من هم إلا نقل حركاتهم وسكناتهم وبسماتهم وأناتهم.

قال: أرأيت لو نقلت أفقر فقرائكم وأبسط بسطائكم ليعيش حياة تفضل حياة أولئك الذين فتنتم به.. ألا يجعله ذلك عبدا لي عن طواعية؟

قلت: أجل.. ولكن مع ذلك، أنت أعور.. لقد وصفك ﷺ بذلك، فقال: (ما من نبي إلا وقد أنذر أمته الأعور الكذاب)[1]

قال: وذلك سر من أسرار فتنتي..

قلت: كيف ذلك.. ومتى صار العور فتنة.. إن العور قصور وضعف.

قال: ولكني في عهدي.. وفي رعيتي.. سيصير فتنة.. فتنة عظيمة.. لن تطيق التعرف عليها.

قلت: أراك تبالغ كثيرا في التيه بقدراتك.. أين عزبت عقول الناس حتى يتبعوك مع ما فيك من النقص.. بل يبيعون الله القدوس بك؟

قال: لقد باع قومك الله بالشياطين.. مع أنهم لم ينالوا منهم أي شيء، فكيف تستكثر على قومي أن يعبدوني بدل الله.. وأنا أوفر لهم كل ما يشتهون.

قلت: أجل.. ذلك صحيح.. ولكنهم مع ذلك نفر محدودون.

قال: كل شيء يبدأ محدودا، ثم يتسع.. ألم يبدأ دينكم برجل واحد لم يجد من يعرف كيف يقف في طريقه؟

---

[1] البخاري (13/85)، ومسلم (8/195)

لست أدري كيف خطر على بالي ابن الصياد، فقلت له: وكيف لم يقم ابن الصياد في وجهه.. لقد شك الصحابة في كونه الدجال.

قال: لقد كان مقترحا أن يتبوأ هذا المنصب الرفيع.. ولكنه كان ضعيفا.. ضعيفا جدا.. وهذا المنصب الرفيع يحتاج إلى القوة.. القوة التي تجعل الخلق يسلمون لك بالألوهية، وهم راضون.. بل يعبدونك وهم في منتهى الخشوع.

قلت: لقد ذكرت لي أن عور عينيك سر من أسرار فتنتك.

قال: أجل.. هو سر من الأسرار الكبرى.. ولذلك ألح نبيكم على ذكره.. إنه يدلكم على حقيقتي.

قلت: ما هي؟.. وما دلالة عوري عليها؟

قال: العينان تدلك على الحقيقة الكاملة.. ترشدك إلى الزوايا المختلفة للأشياء.. فلذلك قد تأخذ منها، وقد تدع.. ولكن العور يجعلك لا ترى إلا شيئا واحدا.. فلذلك كل من يتبعني لا يتبعني إلا بعد أن يصاب بالعور.. وبعد أن يستحلي العور.

قلت: عجبا.. كيف يستحلى العور.. وهو آفة تجعل صاحبها من المعاقين.

قال: في عصركم تقولون ذلك.. ولكنكم في الطريق إلى عصري الذي لا يرى إلا بعين واحدة.. العين الثانية تشتتك.. تجعلك ترى الصور كاملة، لكن العور يحول بينك وبين الشتات.. إنه يجمع همتك لترى الحقيقة التي تصور لك.. لا الحقيقة التي هي عين الواقع.

قلت: ذلك هو الدجل..

قال: وذلك هو السر الأكبر من أسراري، وذلك هو اسمي الذي به أعرف.. وشهرتي التي بها أنادى.

قلت: ألهذا ربط رسول الله ﷺ بين دجلك، وبين عورك، فقال :(ألا كل نبي قد أنذر أمته الدجال، وإنه يومه هذا قد أكل

الطعام، وإني عاهد عهداً لم يعهده نبي لأمته قبلي: ألا إن عينه اليمنى ممسوحة الحدقة جاحظة، فلا تخفى، كأنها نخاعة في جنب حائط، وعينه اليسرى كأنها كوكب دري، معه مثل الجنة ومثل النار، فالنار روضة خضراء، والجنة غبراء ذات دخان)(1)

وفي حديث آخر، قال ﷺ :(ألا أحدثكم حديثاً عن الدجال ما حدّث به نبي قومه؟ إنه أعور، وإنه يجيء معه بمثال الجنة والنار، فالتي يقول: إنها الجنة. هي النار، وإني أنذركم كما أنذر به نوح قومه)(2)

قال: ذلك بعض ما يمكنك فهمه من حديث نبيك.. أما حقيقته فلن تفهمها إلا إذا عشت إلى الزمن الذي أخرج فيه.

قلت: كيف يكون معك مثل الجنة والنار؟.. هل يمكن أن تموه على الناس، فتحول الجنة ذات الرياض النضرة إلى نار.. وتحول النار ذات اللهب إلى الجنة.

قال: في طاقة جدلي أن يفعل ذلك.

قلت: أنت ساحر إذن؟

قال: كل ما تعرفونه من السحر.. وما ستعرفه الأجيال.. وما تعرفه الشياطين والمردة.. يجتمع لدي.. أنا الجامع الذي اجتمعت عنده كل قوى العالم.

قلت: القوى الشريرة!؟

قال: لا يهمني أن تكون شريرة أو خيرة.. أنا لي همة واحدة أن يعبدني الخلق عن طواعية.. وأن ينسوا الله ــ ذلك الذي يزاحمني ـ بعبوديتي.

قلت: لقد أخبر ﷺ أن من فتنتك ودجلك إحياء الموتى.. فقد ورد في الحديث :(وإن من فتنته؛ أن يقول لأعرابي: أرأيت إن بعثت لك أباك وأمك؛ أتشهد أني ربك؟ فيقول: نعم. فيتمثل له

---

(1) عبد بن حميد (118/2)، وابن عساكر (610/1-611)، والحاكم (537/4-539)

(2) البخاري (286/6)، ومسلم (196/8)

شيطانان في صورة أبيه وأمه، فيقولان: يا بني! اتّبعه؛ فإنه ربك. ثم يدعو رجلاً ممتلئاً شباباً، فيضربه بالسيف، فيقطعه جزلتين رمية الغرض، ثم يدعوه، فيقبل، ويتهلل وجهه يضحك)(1)

قال: وذلك مما يجعل الكل يهوي أمام قدمي ساجدا.. لقد أذل ربك عباده بالموت.. وأنا أعزهم بالحياة.

قلت: ولكنها حياة كاذبة.

قال: لا يهمني.. أنسيت أني الدجال.. تهمني الصور.. ولا ألتفت إلى الحقائق.

قلت: لم؟

قال: أنت كثير النسيان.. أنسيت أني لا أرى إلا بعين واحدة.. العين التي ترى الصور.. لا العين التي ترى الحقائق.

قلت: فسينطرح كل من يحب الحياة، ويحرص عليها بين قدميك..

قال: وأولهم قومي من اليهود.. لقد كلفتهم ببناء هيكلي، فماذا فعلوا فيه؟

قلت: هم يمارسون كل الأساليب.. ليبنوا الهيكل.. ولكني لا أرى أنهم يبنونه لأجلك.

قال: بل يبنونه لأجلي.. إن كل همهم أن يروني.. وأن يتبعوني.. وأن يعبدوني.

قلت: لم؟

قال: لأني الوحيد الذي أحقق لهم ما عجزوا عنه.

قلت: ولكنهم يهود، وهم أهل دين سماوي يوحد الله.

ضحك، وقال: أرى أن دجل أولئك التافهين البسطاء السذج ينطلي عليك، فكيف تزعم أن دجلي لا ينطلي على من سيعبدني.

---

(1) مسلم (8/197-198)، وأبو داود (2/213)

قلت: أي دجل؟

قال: أنت لا تقرأ كتاب ربك.

قلت: بل أقرؤه بحمد الله.

قال: فما قال أجدادي لموسى بعد عبورهم البحر؟

قلت: لقد ذكر القرآن الكـريم ذلـك، فقـال تعـالى: وَجَاوَزْنَـا بِبَنِي إِسْرائيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَـالُوا يَا مُوسَى اجْعَـلْ لَنَـا إِلَهـاً كَمَـا لَهُمْ آلِهَـةٌ قَـالَ إِنَّكُمْ قَـوْمٌ تَجْهَلُـونَ (لأعراف:138)

قال: فهل صبروا على عبادة ربكم بعد غياب موسى عنهم؟

قلت: كلا.. فمع أن غيابه لم يدم طويلا إلا أنهم ذهبوا يعبــدون العجل.

قال: لا تسئ فهمهم.. هم لم يعبدوا الجهل.. وإنما نفــروا من عبادة ربكم.. بل قـالوا لموسـى: إننـا نرضـى بـديلا عن إلهـك بـأي شيء.. ولو بعجل.

قلت: أشم منهم مثل هـذه الرائحـة، فهم يتحـدثون عن اللـه، وكأنه رب موسى لا ربهم، وقد قال تعالى عنهم لما أمرهم موسى عليه السلام بدخول الأرض المقدسـة : يَـا مُوسَـى إِنَّا لَنْ نَـدْخُلَهَا أَبَـداً مَـا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَـاتِلا إِنَّا هَاهُنَـا قَاعِـدُونَ (المائـدة: 24)

قال: فإذا علمت ذلـك، فـاعلم أن الهيكـل الـذي سـيبنونه لم يقصدوا ببنائه غيري.

قلت: لقد أخبر صلى الله عليه وآله وسلم أنك ستخرج من خلّة بين الشـام والعـراق، فهل في هذه الخلة يكون هيكلك؟

قـال: أنـا لا وطن لي.. أنـا لا أريـد أن يسـتعبدني أي وطن.. وكيف يستعبدني وأنا الإله.. الإلـه الأوحـد.. ألم يقـل نـبيكم عنـدما سـئل:(ومـا إسـراعه في الأرض؟)، فقـال :(كـالغيث اسـتدبرته

الريح)

قلت: أجل..

قال: فرجل بمثل هـذه السـرعة والقـوة كيـف يـركن إلى أي محل، أو كيف يسكن في أي مسكن.

حصون الخلاص:

قلت: لقد ذكرت لي أسلحتك التي تستعبد بها الخلق.

قال: لم أذكر لك منها إلا ما ذكر نبيك.

قلت: أهناك أسلحة أخرى؟

قـال: أصـدقك وأنـا الكـذوب، ولـولا أني في هـذا المقـام مـا صدقتك، لم يترك نبيكم شيئا مما يمكن أن ينصح به إلا قاله..

قلت: أهناك أشياء لم يذكرها رسول الله ﷺ؟

قال: هناك التفاصيل التي لا تعنيكم.. فنبيكم كان حريصا على السنن، ولم يكن يهتم بالتفاصيل الـتي لن يفقههـا قومـه، ولا أنتم، إن ذكرها.

قلت: فهل غاضك نصح نبينا لنا؟

قال: وكيف لم يغضني.. إن هذه الأحاديث التي نقلهـا الـرواة عنـه لن تمحوهـا الأيـام، بـل لا تزيـدها الأيـام إلا رسـوخا.. وهي الأساس الذي تنطلق منه راية المعارضة التي يتبناها المؤمنون.

قلت: أجـل.. ذلـك صـحيح.. فقـد أخـبر ﷺ عن رجـل مـؤمن يعارضـك، وأخـبر أنـه كـان فقيهـا بـأمرك.. وأن مصـدر فقهـه هـو اطلاعه على أقوال النبي ﷺ فيك، ففي الحديث قـال رسـول اللـه ﷺ :(يخـرج الـدجال، فيتوجـه قبَلَـه رجـل من المؤمـنين، فتلقـاه المسالح ـ مسالح الدجال ـ فيقولون له: أين تعمد؟ فيقـول: أعمـد إلى هذا الذي خرج. قال: فيقولون له: أوَ ما تؤمن بربنـا؟ فيقـول: ما بربنا خفاء. فيقولون: اقتلوه. فيقـول بعضـهم لبعض: أليس قـد نهاكم ربكم أن تقتلوا أحداً دونه؟ قال: فينطلقون بـه إلى الـدجال،

فإذا رآه المؤمن قال: يا أيهاالناس! هذا الدجال الذي ذكـر رسـول الله ﷺ، قال: فيأمر الدجال بـه فيُشـبّح، فيقـول: خـذوه وشـبحّوه. فيوسـع ظهـره وبطنـه ضـرباً، قـال: فيقـول: أوَ مـا تـؤمن بي؟ قـال:فيقـول: أنت المسـيح الكـذاب. قـال: فيـؤمر بـه، فيؤشـر بالمنشـار من مفرقـه حـتى يفـرق بين رجليـه، قـال: ثم يمشـي الدجال بين القطعتين، ثم يقول له: قم. فيسـتوى قائمـاً، قـال: ثم يقول له: أتؤمن بي؟ فيقول: مـا ازددت فيـك إلا بصـيرة. قـال: ثم يقول: يا أيهـا النـاس! إنـه لا يفعـل بعـدي بأحـد من النـاس. قـال: فيأخذه الدجال ليذبحه، فيجعل مـا بين رقبتـه إلى ترقوتـه نحاسـاً، فلا يسـتطيع إليـه سـبيلاً، قـال: فيأخـذ بيديـه ورجليـه فيقـذف بـه، فيحسب الناس أنما قذفه إلى النار، وإنما ألقي في الجنـة)، فقـال رسول الله ﷺ :(هذا أعظم الناس شهادة عند رب العالمين)(1)

وفي حديث آخر قال ﷺ:(يدعو رجلاً فلا يسلطه الله إلا عليه، فيقـول: مـا تقـول فيّ؟ فيقـول: أنت عـدو اللـه، وأنت الـدجال الكذاب. فيدعو بمنشار، فيضعه حذو رأسه، فيشقه حتى يقـع على الأرض، ثم يحييه، فيقول: ما تقول؟ فيقـول: واللـه؛ مـا كنت أشـد بصيرة مني فيـك الآن، أنت عـدو اللـه الـدجال الـذي أخبرنـا عنـك رسول اللـه ﷺ قـال: فيهـوي إليـه بسـيفه فلا يسـتطيعه، فيقـول: أخرّوه عني)(2)

قال: إن الذي يعارضني ليس رجلا واحدا.. بـل يعارضـني مـع فئة من المؤمنين معه.

ثم ضحك، وقال: بل يتآمرون على قتالي ومحاربتي.

قلت: أجـل.. فقـد أخـبر ﷺ عن ذلـك، فقـال :(يـأتي سـباخ المدينة، وهو محرم عليه أن يدخل نقابهـا، فتنتفض المدينـة بأهلهـا نفضة أو نفضـتين – وهي الزلزلـة- فيخـرج إليـه منهـا كـل منـافق ومنافقـة، ثم يـولي الـدجال قبَـل الشـام، حـتى يـأتي بعض جبـال الشام، فيحاصرهم الدجال نازلاً بأصله، حتى إذا طال عليهم البلاء؛

---

(1) مسلم (8/200)، وابن منده (95/1)

(2) رواه الطبراني.

قال رجل من المسلمين: يا معشر المسلمين! حتى متى أنتم هكذا وعدو الله نال بأرضكم هكذا؟! هل أنتم إلا بين إحدى الحسنيين؛ بين أن يستشهدكم الله أو يظهركم؟ فيبايعون على الموت بيعة يعلم الله أنها الصدق من أنفسهم، ثم تأخذهم ظلمة لا يبصر امرؤ فيها كفه، قال: فينزل ابن مريم فيحسر عن أبصارهم، وبين أظهره رجل عليه لأمته، فيقولون: من أنت يا عبد الله؟ فيقول: أنا عبد الله ورسوله، وروحه، وكلمته، عيسى ابن مريم، اختاروا بين إحدى ثلاث: بين أن يبعث الله على الدجال وجنوده عذاباً من السماء، أو يخسف بهم الأرض، أو يسلط عليهم سلاحكم ويكف سلاحهم عنكم. فيقولون: هذه يا رسول الله أشفى لصدورنا ولأنفسنا، فيومئذ ترى اليهودي العظيم الطويل الأكول الشروب لا تقلّ يده سيفه من الرعدة، فيقومون إليهم، فيسلطون عليهم، ويذوب الدجال حين يرى ابن مريم كما يذوب الرصاص، حتى يأتيه أو يدركه عيسى فيقتله)[1]

انتفض الدجال بقوة، وصاح: لا تعد ذكر هذا الاسم أمامي.. لا تعد ذكر هذا الاسم أمامي.. فليس هناك من هو أبغض إلي منه.. إنه الماء الذي يطفئ لهبي.. إنه النور الذي يذهب بظلمتي.. إنه الصدق الذي يذهب بدجلي.. إنه الحق الذي يذهب بباطلي.

قلت: فما الحصن الذي تحصن به المسيح ﷺ لتصير له هذه القوة؟

قال: ألست في حصون المستضعفين؟

قلت: أنا لم أدخلها بعد.. لقد منعت من دخولها إلا بعد المرور على أوكاركم.

قال: فستدخلها، وترى الحصون التي تحصنوا بها.

قلت: سألتك عن سر المسيح.

انتفض بقوة، ثم قال: ألم آمرك بأن لا تعيد ذكر اسمه..

ثم سكت قليلا، ثم قال: ألم يأمركم نبيكم بقراءة سورة

1() عبد الرزاق(20834)

الكهف، لتحصنكم مني؟

قلت: بلى.. فقد قال ﷺ :(من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة، فهو معصوم إلى ثمانية أيام من كل فتنة، وإن خرج الدجال عصم منه)(1)

ومثل ذلك وردت النصوص بقراءة فواتح سورة الكهف، فقال ﷺ:(فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف)(2)، وقال ﷺ :(وإن من فتنته أن معه جنة ونارا فناره جنة وجنته نار، فمن ابتلى بنار فليستغث بالله وليقرأ فواتح الكهف فتكون بردا وسلاما كما كانت النار على إبراهيم)(3)

فهل يكتفي المسيح عليه السلام ومن معه من المؤمنين بالاجتماع على قراءة سورة الكهف؟

قال: القراءة وحدها لا تجدي..

قلت: فما نحتاج غير القراءة؟

قال: الوعي.. هذه السورة تحوي الحصون التي تحمي من فتنتي.

قلت: سألتك عنها.

قال: ما هي المعاني التي تنتظمها هذه السورة؟

قلت: العنصر الغالب في هذه السورة هو القصص: ففي أولها قصة أصحاب الكهف، وبعدها قصة الجنتين، وفي وسطها تجيء قصة موسى مع العبد الصالح، وفي نهايتها قصة ذي القرنين.

وهذه القصص تستغرق معظم آيات السورة، فهي واردة في إحدى وسبعين آية من عشر ومائة آية؛ ومعظم ما يتبقى من آيات

---

(1) المختارة برقم (430)

(2) أحمد ومسلم والترمذي.

(3) ابن ماجة وابن خزيمة ، والحاكم والضياء.

السورة هو تعليق أو تعقيب على القصص فيها.

قال: فإن في كل قصة من هذه القصص حصن من الحصون.

قلت: هي أربعة حصون إذن.

قال: أجل.. العزلة، والزهد، والعلم، والسعي.

العزلة:

قلت: كيف كانت العزلة حصنا من الحصون؟

قال: بماذا تبدأ مشاهد قصة أصحاب الكهف في كتابكم؟

قلت: تبدأ بعرض فرارهم إلى الكهف هربا بدينهم، فقد قال تعالى: أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً (الكهف: 9 ـ 10)

قال: وهكذا يبدأ مشهد المعارضين لربوبيتي.. فإنهم أول ما يفعلون لجوؤهم إلى الجبل.. هربا مني.

قلت: أليس من الأجدى أن يواجهوك؟.. فإن العزلة سلاح لا ينفع إلا صاحبه.

قال: من يواجهون؟.. إنني كالموج العاتي لا طاقة لأحد بمواجهتي.

قلت: ولكن الرسول ﷺ أخبر أن هناك من يواجهك، ويعترض عليك.

قال: أولئك القلة.. أولم تسمع بقتلي له.. لقد قتلته..

قلت: ولكن المسيح يجتمع مع الثلة المؤمن لقتالك..

قال: لا تعد لذكر هذا الاسم أمامي..

ثم سكت برهة، ثم قال: نعم.. ذلك الرجل هو الوحيد الذي يعرف سر تركيبي.. فلذلك.. فلذلك.. أهرب منه.

قلت: أتبقى المعارضة حينذلك مختفية في رؤوس الجبال؟

قال: لا.. حينذاك يخرج الكل لمواجهتي..

قلت: لم؟

قال: لقد أذن ربك للمستضعفين العاجزين بالفرار بدينهم.. فإذا ما وجدوا من القوة ما استطاعوا به تغيير ما حولهم خرجوا.

قلت: لقد ذكرتني بأحاديث وردت في هذا.. وهي ليست خاصة بعهدك.. بل هي تعم كل عصر تنبت فيه أشواك الفتن:

فقد روي أن رجلا قال لرسول الله ﷺ : أي الناس أفضل يا رسول الله؟ قال :(مؤمنٌ مجاهدٌ بنفسه وماله في سبيل الله) قال: ثم من؟ قال: ثم رجلٌ معتزلٌ في شعبٍ من الشعاب يعبد ربه)(1)، وفي روايةٍ :(يتقي الله، ويدع الناس من شره)

وفي حديث آخر، قال ﷺ :(من خير معاشٍ الناس لهم رجلٌ ممسكٌ عنان فرسه في سبيل الله، يطير (2) على متنه، كلما سمع هيعةً أو فزعةً(3)، طار عليه يبتغي القتل، أو الموت مظانه، أو رجلٌ في غنيمةٍ في رأس شعفةٍ(4) من هذه الشعف، أو بطن وادٍ من هذه الأودية، يقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين ليس من الناس إلا في خيرٍ)(5)

وقال ﷺ :(يوشك أن يكون خير مال المسلم غنمٌ يتبع بها شعف الجبال، ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن)(6)

قال: فقد جمع نبيكم بين المواجهة والعزلة.. فمن ليس له

---

(1) البخاري ومسلم.

(2) أي يسرع.

(3) الهيعة: الصوت للحرب. والفزعة: نحوه.

(4) الشعفة بفتح الشين والعين: هي أعلى الجبل.

(5) مسلم.

(6) البخاري.

سلاح ولا قوة.. فقوته وسلاحه في عزلته.

قلت: ولماذا لا يواجه بما أطاق؟.. ألم يأمرنا الله تعالى بالإعداد حسب الطاقة.

قال: سيقتل نفسه بذلك.. ولا ينتفع هو ولا ينتفع غيره بموته.

قلت: كيف لا ينتفع هو؟.. إنه سيموت شهيدا.

قال: وأفضل الشهداء من حرص على حياته، ليمضيها في سبيل غايته، ثم يجعل نهاية ذلك روحه يقدمها قربانا لربه في الوقت المناسب.

قلت: أراك تتكلم كالعارفين.. وأنت تسلك سلوك الدجالين.

صاح بقوة: أنا زعيمهم.

قلت: كيف تجمع بين الأمرين؟

قال: كما تجمعون أنتم.. ألستم تعزلون العلم عن العمل؟

قلت: نحن نفعل ذلك.

قال: فما الذي ساقكم إليه؟

قلت: شهوات غالبة.

قال: فقد اجتمع في نفسي من حب التسلط ما تفرق من شهواتكم جميعا.. لقد اجتمعت في كل أحلام اليهود.. بل كل أحلام الأمم التي لم ترض أن تعيش من غير أن تستحوذ على الكل..

الزهد:

قلت: عرفت الحصن الأول.. فما الثاني؟

قال: لولا الثاني لم يكن الأول.. وبالثاني قد لا تحتاج إلى الأول.

قلت: كيف احتاجت العزلة إلى الزهد؟

قال: الزهد هو أبو العزلة وأمها.. فالراغب يسعى بيديه وقدميه ليملأ الفراغ الذي يطلبه حرصه.. أما الزاهد، فيلجم أعناق رغباته، فتلجم بذلك قدماه.

قلت: فكيف يغني الزهد عن العزلة؟

قال: من ألجم نفسه بلجام الزهد لا تضره الخلطة، ولا يضره الاستبداد.. أرأيت الذي هو أعظم الشهداء عندكم؟

قلت: ما به؟

قال: لقد امتلأ زهدا، فلم تغره جنتي التي كان يتهافت الخلق فيها كما يتهافت الفراش.. بل لم يحرص على حياته التي يحرص عليها الجبناء.

قلت: ألهذا قدم ليواجهك؟

قال: أجل.. قدم بأسلحة لا طاقة لي بها.. فلذلك غلبني.

قلت: كلا.. لقد ذكر النبي ﷺ أنك قتلته..

قال: نعم.. ولكني طمعت في اتباعه لي، فعدت فأحييته.. فأنا أحب أن يتبعني الأقوياء.

قلت: لقد أخبر ﷺ عن ذلك، فقال :(وإن من فتنته؛ أن يسلط على نفسٍ واحدة فيقتلها.. وينشرها بالمنشار حتى تلقى شقين، ثم يقول: انظروا إلى عبدي هذا؛ فإني أبعثه الآن؛ ثم يزعم أن له رباً غيري. فيبعثه الله ويقول له الخبيث: من ربك؟ فيقول: ربي الله، وأنت عدو الله، أنت الدجال، والله؛ ما كنت قط أشد بصيرة بك مني اليوم)[1]

قال: هذه هي النفس الوحيدة التي سلطت عليها.. ومع ذلك عجزت عنها.

قلت: كيف عجزت عنها، وقد شققتها نصفين.

قال: ولكني عدت فأحييتها.. ثم عدت لأقتلها من جديد، فلم

[1] حديث واثلة السابق.

أقدر.

قلت: أجل.. لقد أخبر النبي ﷺ عن ذلك، فقال مخبرا عن ذلك الرجل الصالح:(يقول حين يحيى: والله؛ ما كنت قط أشد بصيرة فيك مني الآن! قال: فيريد قتله الثانية، فلا يسلط عليه)(1)

وقد قال معمر معقبا على هذا الحديث :(وبلغني أنه يجعل على حلقه صفيحة من نحاس. وبلغني أنه الخضر؛ الذي يقتله الدجال ثم يحييه)

ولكن مع ذلك.. فقد تخلصت منه أخيرا.

قال: لقد رميته في ناري.

قلت: فكيف تزعم أنه غلبك؟

قال: لأن ناري لم تكن إلا الجنة.. لقد فاز الزهاد بكل شيء حتى النار تحول لهم جنة.. لكن التسلط مع ذلك خير من الزهد.. التسلط هو الحياة.. ولا حياة بلا تسلط.. ولا ينجي من التسلط إلا الزهد.. أتدي لم أهرب من ذلك الرجل البغيض.

قلت: المسيح عليه السلام!؟

قال: لا تعد ذكر اسمه.. إن جبلي يندك لذكره..

قلت: فكيف سلط عليك، وغلبك.. وأنت الذي تسلطت على كل شيء، وقهرت كل شيء؟

قال: إنه رجل امتلأ زهدا.. ولا ينجو من شباك شهواتي إلا الزهاد.

قلت: والراغبون؟

قال: سأسوقهم كما يسوق الرعاة أغنامهم.

قلت: ورجال الدين من الفقهاء والعلماء؟

قال: أما أهل السلاطين منهم، فما أسهل أن أجذبهم إلى

(1) عبد الرزاق (20824)

صفي.. بل لا أصير دجالا حتى أجذبهم إلى صفي.. بل إن أول ما يفعله أي مستبد هو أن يبدأ بالعلماء.. أهل الشهوات منهم.. يسجنهم في أقفاص الذهب.. ألم تسمع خبر بلعم؟

قلت: بلى.. فقد قال تعالى فيه :﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (لأعراف:175 ـ 176)

قال: فقد كانت شهوات بلعم هي التي جرته إلى الانسلاخ من آيات ربه.

قلت: أجل.. هذا ما نص عليه القرآن الكريم.

قال: وهذا ما أطبقه أنا، ويطبقه كل مستبد.. أربط العلم بالشهوات والمناصب.. حتى يصبح العلم شبكة ليس لها من هم إلا الصيد.

قلت: وأهل العفاف من العلماء كيف تتعامل معهم؟

قال: يسجنون في الزنازن والكهوف.. فيموتون في ظلال الخمول.

قلت: ولكنهم سرعان ما ينبتون.

قال: لكل شيء نهاية.. وأنا لا تهمني النهاية.. فأنا أعلمها كما كان يعلمها حليفي إبليس.. فهل صده ذلك عن غوايته؟.. إن هناك أشياء كثيرة لا يمكنك أن تقاومها.. وأكبرها السلطة والسيطرة على الكل.. وأكبرها جميعا أن تصير إلها يخضع له الجميع.. يرجوه الجميع، كما يرهبه الجميع.

قلت: زعمت أن سورة الكهف تحوي الحصون التي تحمي منك.. فأين حصن الزهد فيها.

قال: أرى شغفك بالأرقام.. كم مرة وردت كلمة :(زينة) في سورة الكهف؟

بادرت قائلا: ثلاثة.. أما أولها، فقوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ (الكهف: 7)

وأما الثانية، فقوله تعالى: ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً ﴾ (الكهف: 28)

وأما الثالثة، فقوله تعالى: ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً ﴾ (الكهف: 46)

قال: فهذه آيات تفوح بروائح الزهد التي يستطيبها الصالحون.. ولا ينجون إلا بها.

قلت: لقد زعمت أن في قصص السورة ما يدل على الحصون، فأي قصة تدل على حصن الزهد؟

قال: اقرأ قصة صاحب الجنتين، لترى كيف يعتز المؤمن بإيمانه في وجه المال والجاه والزينة.. وكيف يقاوم بزهده دجل جاه صاحبه وزينته.

قلت: لقد ذكر ذلك القرآن الكريم بأبلغ عبارة، وأفصح إشارة، فقال: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آَتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ

يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِـرًا وَلَمْ تَكُنْ لَـهُ فِئَةٌ يَنْصُـرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً﴾ (الكهف:32 ـ 43)

قال: فهذه الآيات تحوي حقائق الزهد التي تمتلئ بهـا كهـوف الذين يمتلئون بغضا لي، ومعارضة لشهواتي.. ولن يكون لفلسفتي التي سأبثها في ذلك الزمان إلى معارضة مـا ورد في هـذه الآيـات من حقائق الزهد.

قلت: إن لنا فلسفات كثيرة تحمل المعارضة لهذه الآيات.

قـال: لن تكفيـني.. سأسـتعملها.. ولكـني لن أكتفي بهـا.. ألا تعلم أني الجـامع الـذي اجتمعت في كعبتـه كـل قـواميس الإغـراء والوسوسة.

قلت: أتلك هي فتنتك؟

قـال: تلـك هي فتنـتي الكـبرى.. أمـا القتـل الـذي يمارسـه المستبدون الصغار، فلا حاجة لي فيه.. وقد أخبركم نـبيكم أني لن أسلط إلا على روح واحدة، ومع ذلك تغلبني، فلا أملك إلا أن أرمي بها في رياض الجنة.

قلت: إني لا أزال أعجب من كونـــك أعظم فتنـــة تشـــهدها البشرية، ومع ذلك لا تسفك دماء.. ومع ذلك لا تدوم طويلا.. حـتى روي عن أبي عمرو الشيباني قال: كنت مع حذيفـة بن اليمـان في المسجد، إذ جاءه أعرابي يهرول حتى جثا بين يديـه، فقـال: أخـرج الدجال؟ فقال حذيفة: أنا لما دون الدجال أخوف من الدجال، ومـا الدجال، إنما فتنته أربعون يوما[1].

قال: أنا أعظم فتنة عرفها التـاريخ.. لقـد نص على ذلـك كـل الأنبيـاء.. وسـر فتنـتي هي علمي بطبـائعكم معشـر البشـر.. لقـد درستكم، ومحصتكم، فأتيتكم من أبوابكم.

العلم:

قلت: لقد ذكرت أن الحصن الثـالث هـو العلم.. مـع أنـك قـد

[1] نعيم بن حماد في الفتن برقم 1551 قال المحقق: (إسناده قوي).

ذكرت أن أهل العلم هو أول من ينتصر لك.

قال: لا أريد علومكم.. العلم الذي يقهرني علم الخضر.

قلت: فذلك الرجل الوحيد الذي سلطت عليه هو الخضر إذن.. كما ذكر معمر.. ولكن من المحدثين من رفض ذلك ورده.

قال: إذا لقيت الخضر.. فاسأله.. فلا شأن لي بالأسماء.

قلت: وأنى لي أن ألقى الخضر.

قال: من وصل إلى الدجال، لن يعجز أن يصل إلى الخضر.

قلت: أراك تريد أن تفتنني، لولا نور السنة ما حاورتك.. فأنا أضعف شأنا من أن أفترى على الله كذبا.

قال: فدعك من البحث عن الخضر وابحث عن أسرار الخضر التي نال بها العلم اللدني.. فلن ينجو مني إلا أصحاب العلم اللدني.

قلت: ما الفرق بين علم من اتبعك، وأصحاب العلم اللدني؟

قال: لم يتبعني إلا من أوتي علوم قارون.. ألم يقل : إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي (القصص: 78)

قلت: فما الفرق بين علم قارون، وعلم الحضر؟

قال: علم قارون علم أوتي من لدنه.. من نفسه من مستنقعات نفسه وشهواتها، أما علم الخضر، فهو علم من ربه.. بدأه باسمه وختمه به.

قلت: لقد أمرنا الله تعالى بالقراءة باسمه، فقال تعالى: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (العلق:1)

قال: من قرأ هكذا نجا مني.. ومن قرأ بنفسه وقع في حبالي؟

قلت: لم؟

قال: لأني أكبر تجل لعالم النفس.. أنا الجنة التي تهفـوا إليهـا النفـوس.. أنـا الطـور الـذي تتم فيـه مناجـاة النفـوس مـع رب النفوس.. أنا الكل.. أنا الكل..

راح يصرخ بها، إلى أن ملأني رعبا، ثم سكت قليلا كـالمتفكر، ثم قال: تريد أن تبحث عن أسرار العلم اللدني.

قلت: لم تعـد مـا في نفسـي.. فـإن قـومي يعتـبرون العلم اللدني من الإلهام، وهم يخصـون بـه نفـرا جعلـوهم وسـائط بينهم وبين ربهم.

قـال: أولئـك أول من يسـير في ركـابي.. إنهم من عـالم النفس.. ولن يجد أهل عالم النفس ملجأ غيري.

قلت: فما العلم اللدني إذن.

قال: ستعرف أسراره من أهله.

قلت: ولكنك تتحدث عنه الآن.

قال: لأن نبيكم اعتـبره حصـنا من الحصـون الـتي يحتمى بهـا مني.

قلت: أين هذا؟

قال: ألم تر أن ذلك الرجل لم ينج من فتنتي إلا باطلاعه على حديث نبيكم.

قلت: بلى.. ولكن أجاديث النبي ﷺ عنـك بلغت مبلـغ التـواتر، فكيف غفل عنها الناس.

قال: أنتم تميتون كـل يـوم علمـا جديـدا.. تقتلونـه وتجهـزون عليه.. ويوشك أن يأتي يوم يهب فيه بعض محدثيكم ليخبركم بـأن الدجال أسطورة..

قلت: فهل يصدقه الناس؟

قال: لن يقول هذا حتى يمتلئ الناس تعظيما له، وثقة فيه.

قلت: ولكن نفرا من قـومي يغـيرون على السـنة، وهم أعلم بالرجال، وسيسهل عليهم إثبات إفك هذا الأفاك.

قال: لا.. لن يصعب عليهم ذلك.. فسـيأتي من يـرمي الكـل.. وحينذاك سيبث للناس ما يجعلهم يجهلونني.. بل يتجاهلونني.. بــل قد يورد لهم مـا يبشـرهم بمجيء اللـه.. إني أرى نفـرا من قومـك بدأوا يعدون لهذا.

قلت: صدقت.. فقد انتشر التشبيه انتشـارا عجيبـا.. فلا يحلـو لأحدهم نص إلا إذا وصف لهم ربهم كما يصف الرجل منهم.

قال: فهؤلاء هم المقدمات التي تقـدم لمجيـئي.. إني لن آتي حـتى ينتشـر شـوق شـديد بين الخلـق طلبـا لي.. أنـا لا أحب إلا الانتصار الأبيض.. الانتصار الذي يجعـل الكـل يركـع، وهـو يحن لأن يركع.

قلت: لقـد ذكرتـني بقولـه ﷺ :(يخـرج الـدجال في خفّـة من الدين، وإدبار من العلم)[1]

قال: فلذلك لن يحصن مني إلا العلم.

قلت: لقد ذكرتني.. لم لم تذكر في القرآن الكريم مع أنه قد ذكر ما هو دونك من الآيات.

قال: وذلك من فتنتي..

قلت: كيف ذلك؟

قال: إن أعظم ما يستدل به المحدثون الذين يمهـدون لتقبـل الناس لي هو عدم ذكري في كتـابكم، سـيعتبرون ذلـك من أعظم دلائل أسطوريتي.

قلت: فلم لم تذكر؟

قال: إن كتابكم يحتقـرني، كمـا يحتقـر كـل المسـتبدين.. إنـه يعطيكم كل الأسلحة التي تواجهون بهـا كـل المسـتبدين، ولكنـه لا

---

[1] أحمد (3/367-368)

يهتم بأسمائهم، وتفاصيل أسمائهم..

قلت: كيف تكون رأس المستبدين، والناس يتبعونك طوعا.

قال: وهذا أعظم استبداد.. أن يقهرك الحاكم، ثم لا تجـد لـك من الخيـارات إلا أن تتبعـه، وتسـير في ركبـه.. هـو يظهـر بمظهـر العادل، ولكنه في الحقيقة يحمل نفس أعظم مستبد.

قلت: لكأني تشير إلى حضارة قومي.

قال: أجل.. هي تنشر ما تسمونه بالديمقراطية الـتي تنطـوي على أعظم دكتاتورية.. وتبشر بحكم الشـعب.. وهي لا توصـل إلى حكم الشعب إلا من تكبر على الشعب، وتعالى على الشعب.

قلت: ما هي القصة التي تشـير إلى هـذ الحصـن من قصـص سورة الكهف؟

قال: قصة موسى مع الخضر..

قلت: لقد كان الخضـر ينظـر إلى الحقـائق الـتي تـؤول إليهـا الأشياء.

قال: ولا ينجو مني إلا من نظر بهـذه النظـرة.. من يبصـر في جنتي حر جهنم.. ويتنسم من نارى عطر الجنة.

قلت: لقد ذكر النبي ﷺ ذلك، فقال:(ومعـه نهـران- أنـا أعلم بهما منه- نهر يقول: الجنـة، ونهـر يقـول: النـار، فمن أدخـل الـذي يسميه الجنة فهو النار، ومن أدخل الذي يسميه النار فهو الجنة)[1]

وفي حديث آخر قال ﷺ :(وإنه معـه جنـة ونـار، ونهـر ومـاء، وجبل خبز، وإن جنته نار، وناره جنة)[2]

وفي حديث آخر، قـال ﷺ :(يخـرج الـدجال ومعـه نهـر ونـار، فمن دخـل نهـره وجب وزره وحـط أجـره، ومن دخـل نـاره وجب

1() أحمـد (3/367-368) وابن خزيمـة في (التوحيـد) (ص31-32)، والحـاكم (4/530)

2() أحمد (5/434و435)، وحنبل (2/54-2/55).

أجره وحط وزره، ثم إنما هي قيام الساعة)[3]

السعي:

قلت: لقد ذكرت أن الحصن الرابع هو السعي.. مع أنك قد ذكرت ـ في نفس الوقت ـ أن أهل العزلة هم الذين ينجون من فتنتك.. فكيف يستقيم السعي مع العزلة.. وهل العزلة إلا قعود عن السعي؟

قال: لم تتم العزلة التي نجى بها الناجون مني إلا بالسعي.

قلت: كيف ذلك؟

قال: إن أولئك الذين حملوا لواء معارضتي ساروا في الناس يحثونهم على الهرب من فتني.. لقد سعوا سعيا دونه كل سعي.. لقد تحملوا في سبيل سعيهم كل بلاء، وضحوا بكل شيء.

قلت: ولماذا لم يسعوا مثل هذا السعي لقتلك وحربك؟

قال: ما أضعف عقلك.. من له طاقة بحربي، والشعب كله في صفي ممتلئ إخلاصا يفديني بنفسه وماله.. ألا تزعم شعوبكم أنها تفدي حاكمها؟

قلت: نسمع ذلك في المظاهرات والمسيرات.

قال: ذلك نفاق وزور.. أما أنا، فيخلصون لي.. يعبدونني عن طواعية، لذلك لا يخلص أحد إلي قبل أن تخلص إليه سيوف رعيتي.

قلت: ألرعيتك سيوف؟

قال: أجل.. سيوف لا كالسيوف التي تعرفونها.. إنها آخر تطور وصلت إليه صناعة الأسلحة.. ألم تسمع بحماري؟

قلت: سمعت، وعجبت، فقد ذكره ﷺ، فقال :(وله حمار يركبه عرض ما بين أذنيه أربعون ذراعاً)

---

[3] أحمد وأبو داود والحاكم.

قال: صدق نبيكم.. لكأنه قاسه بذراعه.

قلت: كيف يكون الحمار بهذا الشكل؟

قال: أنسيت أني أحمل جميع علوم البشر؟

قلت: وما علاقة علوم البشر بهذا؟

قال: أنسيت ما تتلاعبون به من الجينات؟

قلت: تقصد الهندسة الوراثية.

قال: أنتم لا زلتم تتعلمون حروف هذا النوع من الهندسة.

قلت: وأنت إلى ما وصلت؟

قال: إلى سر أسرارها.. بل إلى سر الحياة.. فلذلك أشكل ما أشاء.. ليصير ما أشاء.

قلت: فلم ترض لنفسك غير الحمار.

قال: إن القيمة التي يحتلها حماري في أذهان رعيتي لن تتخيلها.. ولن تستطيع أن تتخيلها.. إنك تحكم على العالم بعينك القاصرة، وبنفسك المسجونة.

قلت: ما هي القصة التي ترتبط بهذا الحصن من قصص سورة الكهف؟

قال: قصة ذي القرنين.. ألم يطف ذو القرنين العالم؟

قلت: بلى.. لقد ذكر الله تعالى ذلك، فقال : وَيَسْأَلونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا فَأَتْبَعَ سَبَبًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ

مِنْ دُونِهَا سِتْرًا كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ (الكهف:83 ـ 98)

قال: في كل كلمة من كلمات هذه الآيات شرط من شروط السعي، وميدان من ميادينه.. وكلها مارسها من عارضني.. فلذلك لم أمكث في الأرض إلا قليلا.

قلت: فعلمني علومها..

قال: ويلك.. أنسيت أني الدجال.. أنا لا أعلم إلا الدجل.

قلت: فقد ذكرت لي من العلوم ما نفعني..

قال: قد يصدق الكذوب..

قلت: فكيف صدقت؟

قال: لا أكتمك أن الصدق له لذة لا تعدلها لذة.. فلذلك لا أرى أجمل من الصدق عندما أجد له موضعا.

قلت: ما دام للصدق تلك اللذة، فلماذا تعدل عنه إلى الكذب والدجل؟

قال: لأن الكذب والدجل هو وسيلتي الوحيدة لتحقيق أكبر أمنية حملتها نفوس المستبدين.. وأنا أضحي بكل لذة من أجل تلك اللذة.. وأول ما أضحي به الصدق.. فلا دجال إلا وهو كاذب.. ولا مستبد إلا وهو كاذب.

قلت: ولكنه يكذب على نفسه.

قال: لو صدق مع نفسه لصدق مع الكـل.. ألا تعلم أن النفس هي منبع الكل؟.. وأنا لا أنبع إلا من نفسي.

فجأة، وبعد أن سمعت هـذا، رأيت غمامـة سـوداء ترتفـع من صدري، لتحل بدلها أنـوار السـكينة وصـفاءها وطمأنينتهـا.. تطلعت ببصيرتي في وهجها، فرأيت كل من امتلأت بحبهم في رحلـتي من أبطال ابتـداء من السـحرة وامـرأة فرعـون، ومـؤمن آل فرعـون، والحسـين والثلـة الطيبـة معـه، وسـعيد بن جبـير.. وغـيرهم من الأبطال.

ثم رأيتـني بعـد ذلـك أتقمص أشخاصـهم جميعـا، ويحـل في نفسي من الشجاعة والقوة ما لم يكن في حسباني..

وفجـأة رأيت نفسـي بجـانب ذلـك الضـخم الـذي كنت أرتعـد لمرآه، ويرتجف قلبي عندما يسمع اسمه.. لكني في تلـك اللحظـة رأيته بصورة مختلفة تماما.. لقد رأيته ضعيفا حقيرا ممتلئا قيـودا.. حتى أني لم أتزحزح عن مكاني عندما أراد أن يمـر من طـريقي.. بل لم أنحن له.. ولم أسارع للتزلف إليه كما كنت أفعل، وكما كان يفعل المستضعفون من أمثالي.

والغرابة في أنه راح على خلاف عادته، يتزلف إلي، ويسـألني عن حـالي، وعن مطـالبي، ويطلب مـني أن أسـجلها لـه، ليقـوم بتنفيذها، مع أني ظللت مـدة طويلـة أطلبهـا، وأرسـل في سـبيلها الشـفعاء، وأنفـق في سـبيل تحقيقهـا الأمـوال.. ولم يكن يلتفت لذلك، بل لم تكن تزيده ذلـتي إلا كـبرا، ولم يكن يزيـده تـزلفي إلا تضخما وتعاظما.

لم أفطن لسر ذلك إلا بعد أن انصرف عني، وجاء بدلـه بعض المستضعفين، وقد كان يرقب حركاتي في ذلـك اليـوم.. قـال لي، وهو ممتلئ استغرابا: ما الذي حصل لك؟ أين كنت تخزن كل هـذه القـوة والشـجاعة؟ لم أرك هكـذا من قبـل.. لقـد واجهت هـذا المستكبر الذي ترتجف له القلوب بكل شجاعة وقوة، وأسمعته ما لم يسمعه في حياته.. والعجب أنه استسـلم لـك، ولم يسـتطع أن يواجهك.. لقد انتصرت للمستضعفين.. فهنيئا لك، وهنيئا لنا بك.

سألته متعجبا: ما الذي تقصد؟

قال: صدقني .. لقد رأيتك وأنت تتحدث معه بتلك القوة، فتذكرت مؤمن آل فرعون حين استطاع أن يحطم جدار الخوف في نفسه، ويخاطب أولئك الملأ بما لم يتعودوا سماعه.. والعجب أنه حصل لك ما حصل له.. فلم يملك هذا الفرعون أن يفعل لك شيئا، كما لم يملك فرعون موسى أن يفعل للمؤمن شيئا.

قلت له: لكني لم أكن هنا.. أنا كنت في ..

أردت أن أكمل، فخشيت أن يتهمني بالجنون، وتتغير نظرته لي، فقلت: منذ متى وأنت تراني وترقبني.. ألم تكف عن تصرفاتك هذه؟

قال: منذ الصباح .. مذ خرجت من بيتك وأنا أراقبك.. هذه هي وظيفتي.. لست أدري لم.. لكنك اليوم ملأتني سرورا وشجاعة.. فهلم حدثني عن سر شجاعتك وقوتك لعلي أقف في يوم من الأيام مثل موقفك هذا الذي يساوي الدنيا وما فيها.

قلت: أجل .. هذا واجبي.. لكني كما تعرف عيي اللسان.. لذلك سأكتب لك ما لعله يجيبك إلى طلبتك، ويبين لك سر ما رأيته مني.

كان هذا الكتاب هو جوابي له.. وقد سر به كثيرا.. وسلمه لرفاقه وأصدقائه من المستضعفين.. وقد كان له أثره البالغ فيهم..

بل كان له أثره كذلك على ذلك الضخم الذي وصلته نسخة من الكتاب، فراح يقرؤها بشغف وحزن، ثم رأيته يجمع كل من كان يستضعفهم، ويتكبر عليهم، ليقبل أيديهم ورؤسهم، ويعتذر لهم، ويتحول إلى خادم أمين لمصالحهم التي وكلت إليه.

هذا الكتاب

تهدف هذه الرواية بأحداثها وحواراتها مع بعض كبار قـادة الاستكبار والاستبداد في التاريخ إلى هدفين كبيرين، كلاهما له علاقـة بالسـلام وبتحقيقـه في الواقـع النفسـي والاجتمـاعي والسياسي:

أولهما: بيان خطورة الاستكبار، ومنافاته لعوالم السـلام الجميلة، فالمستكبر عدو نفسه قبل أن يكـون عـدوا للمجتمـع أو للرعيـة الـتي ولي عليهـا صـغيرة كـانت أو كبـيرة.. ولـذلك حاولنا في الرواية أن نصـور بعض تلـك الآلام الـتي يشـعر بهـا المستكبر عندما يخلع كفن جسده، ويلبس الثوب الـذي يمثـل حقيقته.. وقد استوحينا صـور تلـك الآلام من خلال مـا ورد في الروايات من تجسد الأعمـال وتحولهـا إلى حقيقتهـا الملكوتيـة الممتلئة بالألم.

ثانيهما: بيـان خطـورة السـكوت على الاسـتكبار وعـدم مواجهته، واعتبرنا ذلك ـ كما دلت عليـه النصـوص المقدسـة ـ صناعة للاستكبار وتقوية له، كما قال تعالى: ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمـاً فَاسِـقِينَ﴾ (الزخـرف:54).. ولـذلك حاولنا أن نجسد بعض مشاهد الأولياء والصالحين الذين وقفوا في وجوه طغاة زمانهم، وبينا بعض أنواع النعيم والسلام الذي يعيشونه في مقابل الآلام التي يعيشها المستكبرون.

وقد اخترنا لتحقيق هذين الهـدفين سـبعة من كبـار أعلام الاستكبار في التاريخ، كل منهم يمثل جانبا أو جوانب منه.